


أدبيّات النّهوض

نصر ونهضة

# القدس
## الموقعيّة والتاريخ

د. حسن جابر
د. إبراهيم بيضون
أ. د. سهيل زكّار
د. زهير جلّول



# القدس: الموقعيّة والتاريخ





اسم الكتاب: **القدس: الموقعيّة والتاريخ**

المؤلّف: **مجموعة من الباحثين**

الناشر: **دار المعارف الحكميّة**

إخراج الكتاب: Idea Creation

عدد الصفحات: ١٢٤

القياس: ١٤,٥*٢١,٥

تاريخ الطبع: ٢٠١٣

الطبعة الأولى

[١٤٣٤ هـ. - ٢٠١٣ م.]




العنوان: حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي - ط٢ شمالي
تلفاكس: ٥٤٤٦٢٢-٠١ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

## باسمه تعالى

## كلمة المعهد

لم تعانِ مدينة من بين مدن العالم الإسلاميّ، بل ومدن العالم قاطبةً، بعضًا ممّا عانته مدينة القدس الغرّاء في رحلتها المريرة مع الشعوب والأقوام طوال سِنِيّ التاريخ. فما يراه الناظر إلى حالها في يومنا الحاليّ، من اضطهادِ اليهود الصهاينة لها، واستباحتهم حرماتها، وقتلهم الأطفال والنساء فيها، ليس إلّا حلقةً من سلسلة طويلة من أزمات عانتها مدينة القدس وأحاطت بأهلها لعهود طويلة خَلَت، مُنذ عصور ما قبل الإسلام وحتّى عصرنا هذا.

فمنذ ما قبل عهد نبيّ الله داوود (ع)، وصولًا إلى عهد حكم صلاح الدين الأيّوبي لها، تشهد المدينة حروبًا لنيلها وبسط يد السلطة فيها، فهي لم يهنأ لها نوم ولم يهدأ لها بال، وما كانت تخرج من فاجعة حتّى تقع في أخرى، فشهدت ما شهدته من حروب وغزوات ومجازر امتدّت طوال تلك المدّة[1]، لتتّصل دماء الأوّلين فيها بدماء الآخرين، ويجتمع من السفك فيها ما لم يجتمع في غيرها. ولم تتوقّف المأساة عند ذلك، بل تبع وفاة صلاح الدين عدّة حملات صليبيّة على البلاد الإسلاميّة نالت القدس منها نصيبًا من الحرب والدمار[2]. والقدس ما زالت تشهد، حتّى

---

(١) تفصيل ذلك كلّه، منذ فترة حكم اليبوسيّين للمدينة وحتّى عهد صلاح الدين الأيّوبي وأولاده، مذكور في المقالة الثانية من الكتاب بعنوان «القدس: المدينة الوازنة في التاريخ الإسلاميّ» للكاتب الدكتور إبراهيم بيضون.

(٢) تفصيل الكلام على الحملات الصليبيّة بعد وفاة صلاح الدين وارد في المقالة الثالثة من الكتاب بعنوان «القدس من بعد وفاة صلاح الدين حتّى الحملة الصليبيّة السابعة» لكاتبها الأستاذ الدكتور سهيل زكّار.

يومنا هذا، الوتيرةَ نفسها من السفك والعدوان، وكأنّه لم يكتب لمدينة السلام أن تبصر السلام.

لا يشكّ عارف بما لهذه المدينة من مزايا وخصائص روحيّة ومعنويّة جعلتها قبلةً ونقطة لقاء لأهل الديانات السماويّة قبل الإسلام، فكما تمثّل المدينَة للمسلمين رمزًا من رموز القداسة لما احتضنته من حركات الأنبياء طوال التاريخ، فهي تمثّل لأهل المسيحيّة واليهوديّة رمز القداسة نفسه، إذ كانت أيضًا موطنًا لدياناتهم وأنبيائهم. ولكنّ المثير، هنا، هو البون الشاسع بين حال المسلمين القدامى - الذين مثّلت لهم المدينة أولى الأولويّات، واستماتوا غير مرّة في الدفاع عنها أو تحريرها من أيدي محتليها - وبين مسلمي يومنا هذا، الذين باتوا قريري العين عن احتلال اليهود الصهاينة لفلسطين، التي تشكّل القدس عاصمةً لها، وإنشائهم فيها لدولتهم (دولة إسرائيل)، مدّعين أنّ ذلك حقّ شرعيّ لهم، اكتسبوه بأمر الإله الواحد واغتُصبوه سابقًا، وهم الآن استعادوا ما اغتُصِب منهم ظلمًا في أحقاب سابقة.

إنّ مركزيّة قضيّة القدس، وفلسطين عامّةً، تنبثق عن ركيزتَين: (١) محوريّتها في الحركة الروحيّة المعنويّة للإسلام كدين توحيديّ متمّم لما سبقه من أديان سماويّة حيث كان إليها إسراء النبيّ (ص) وفي مسجدها أقام الصلاة بجموع الأنبياء ومعهم جبرائيل[٣]؛ (٢) كونها دولةً عربيّةً مسلمةً قابعةً بين دول بحسب المفترض أشقّاء لها، ملتزمين الدفاع عنها ومعاونتها في قبال الأخطار الخارجيّة الغربية.

ما يشهده العالم العربيّ والإسلاميّ اليوم، يُظهر، بوضوح، تغاضيَ المسلمين عامّةً - إلّا قلّةً منهم - عن الركيزة الأولى، بحيث لا نسمع من قبلهم أثرًا في سبيل نصرتها، أو دعوةً للجهاد فيها؛ وإعراض العرب

(٣) راجع، للخوض في تفصيل هذه المسألة، المقالة الأولى من الكتاب بعنوان «القدس ومنهجيّة الالتحاق والاندماج» لكاتبها الدكتور حسن جابر.

خاصّةً عن دورهم وواجبهم الذي التزموه كمنتمين لما يسمّى بجامعة الدول العربيّة، من دور مناط بهمٍ للدفاع عن دولة عربيّة شقيقة تعاني القتل في كلّ يوم، وتتكبّد ما يجلّ من خسائر ماديّة تتمثّل بدمار البنى الفوقيّة والتحتيّة، ومعنويّة تتمثّل بفقد الهويّة الإسلاميّة فيها.

لقد هادن مسلمو عصرنا هذا المحتلّ الغاصب وساوموه على استحلال مدينتهم المقدّسة، بل وأقرّوا أحقّيّة وجوده فيها، وذلك من خلال:

١. توقيعهم معاهدات السلام مع العدوّ الإسرائيليّ.
٢. بذل فروض الطاعة والولاء المطلق لحكومات الدول الغربيّة والأوروبيّة - لا سيّما حكومة الولايات المتّحدة الأميركيّة - التي تدعم بشكل واضح ودونما استحياء الكيان المحتلّ بالمال والسلاح، وتبرّر له ما ارتكبه ويرتكبه من مجازر، ومعاونة هذه الدول في تطبيق مشروعها الدوليّ في منطقة الشرق الأوسط[٤].
٣. سعيهم اليوميّ الحثيث - ولو بوسائل خفيّة - لتحقيق التطبيع مع ما يسمّى دولة إسرائيل.
٤. توقيع اتّفاقيّات تجاريّة واقتصاديّة وعسكريّة مع الكيان الغاصب.
٥. قطع سبل الإمدادات الحيويّة واللوجيستيّة عن أهل فلسطين، ما خلا بعضٍ مواد غذائيّة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تكفي جزءًا بسيطًا من أهل فلسطين. في حين تمدّ دول عربيّة كبرى الدول الغربيّة بمبالغ عظمى من الهبات والقروض، وتبيح لهم

(٤) يلفت الدكتور جابر، في المقالة ذاتها، إلى خطورة وضع المسلمين في أيّامنا هذه، إذ تقبع القدس من جهة تحت الاحتلال الصهيونيّ، فيما تقبع مكة المكرّمة تحت سلطة حكام هم في واقع الأمر خدّام قائمون على تطبيق السياسات الغربيّة في المنطقة. وذلك له ما لا يخفى من دلالات خطيرة على فقدان المسلمين، واقعًا، لكلا المدينتَين اللتين دارت الحركة الروحيّة والتشريعيّة للإسلام بينهما، واللتين لن تتمّ رسالة الإسلام مع ظهور المخلّص إلّا بينهما، لما فيهما من رموز إسلاميّة مقدّسة (المسجد الحرام والمسجد الأقصى)، فراجع.

نفطها وخيراتها الطبيعيّة.

٦. الوقوف الصريح بوجه حركات المقاومة ومنع تسليحها بحجّة حفظ الأمن الداخليّ.

٧. مواجهة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة ومن يتّصل بها من حركات وأحزاب بشتّى سبل المواجهة، واعتبارها العدوّ الاستراتيجيّ الأوّل للعرب. محوّرين بذلك وجهة الصراع من صراع عربيّ–إسرائيليّ، أو إسلاميّ–صهيونيّ، إلى صراع سنّيّ–شيعيّ، وهو ما تأسّس الخارجيّات الغربيّة سياستها على تعزيزه وتركيزه.

وفي إزاء ذلك كلّه، يجد المسلم الحقيقيّ نفسه ملزمًا، لما تمّ ذكره من اعتبارات، بأن يقدّم لفلسطين والقدس أيّ جهد قد يسهم في نصرتها، ولو كان وِترًا في عالم يملأه الظلم والظلام. وفي السياق نفسه، لا يقلّ تكليف المؤسّسات الثقافيّة ومراكز الأبحاث والدراسات عن تكليف غيرها من المؤسّسات الأخرى، بل يجب أن تجهد هي، أيضًا، في نشر المعرفة المتعلّقة بالمدينة المقدّسة وشعبها، سعيًا منها لاستنهاض بعض همم الخامدين من أهل الإسلام، وإيضاح مبهم الوقائع التاريخيّة والسياسيّة لهذه المدينة، والدعوة إلى نصرتها بشتّى السبل.

ومن هنا، يقدّم معهد المعارف الحكميّة لقرّائه كتابه هذا بعنوان **القدس: الموقعيّة والتاريخ**، سعيًا منه لإعطاء المدينة المقدّسة بعض حقّها، وإعادة قضيّتها إلى الضوء بعد ما غيّبتها مساعي الظلم والاحتلال. يتألّف الكتاب من مقالات أربعة قدّمها كتّاب من نخبة أهل الاختصاص. يقدّم حسن جابر في مقالته مقاربةً حول دور القدس المعنويّ كمدينة تقف جنبًا إلى جنب مع مكة ليشكّلا محور حركة الإسلام الروحيّة والتشريعيّة؛ ثمّ تطرح المقالة الثانية، لكاتبها إبراهيم بيضون، عرضًا مسهبًا لواقع المدينة التاريخيّ منذ عهد الحكم اليبوسيّ فيها وحتّى عهد أبناء صلاح الدين الأيّوبي؛ ثمّ يقدّم سهيل زكّار، في المقالة الثالثة، سردًا تفصيليًّا لمرحلة ما

بعد وفاة صلاح الدين حتّى الحملة الصليبيّة السابعة؛ وفي المقالة الرابعة والأخيرة، يطرح زهير جلّول المراحل التتابعيّة لاحتلال الصهاينة للقدس بعد أن يشير إلى بعض سماتها الحضاريّة.

إنّ معهد المعارف الحكميّة إذ ينشر هذا الكتاب ضمن سلسلة **أدبيّات النهوض**، يتمنّى أنّ يحقّق الكتاب ما رجى له كتّابه والمساهمون في إنجازه من غايات فكريّة نهضويّة، واعدًا قرّاءه الكرام بأنّه لن يكون آخر ما يصدره المعهد عن القدس وقضيّتها، راجيًا له أن ينال موفّقيّةً بقراءة أصحاب القضيّة الحقيقيّين له.

والله من وراء القصد

**معهد المعارف الحكميّة**

**حسين السعلوك**

# القدس ومنهجيّة الالتحاق والاندماج

د. حسن جابر[1]

تحمل الإشارات الواردة في القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف والروايات الواردة عن الأئمّة عليهم السلام جملة مداليل تحتاج عمليّة المقاربة بينها أو التعامل معها إلى دراسة بعض خصوصيّات المكان والزمان في إطار الدعوة إلى الله تعالى، بدءًا من أيّام البعثة الأولى، وانتهاءً بمرحلة الاستخلاف الكبرى التي ستدخلها المجتمعات الإنسانيّة قاطبةً في آخر الزمان.

والذي حفّزنا للتصدّي إلى مثل هذا العمل، الحضور الدائم للقدس ومركزها، المسجد الأقصى، في خضمّ حركتَي الدعوة والتغيير، ممّا يعني أنّ دورًا ما يُفترض بالقدس أن تلعبه في مختلف المراحل، ويُفترض أيضًا أن يكون للقدس خصوصيّةً تميّزها عن الكثير من حواضر العالم القديم والحديث المعاصر.

والأمر الذي ينبغي أن يُشار إليه أنّ التقاط صور الحضور الدائم للقدسِ متيسّرٌ لكلّ مطلع على التاريخ، فهي تمسك بناصية المدن القديمة بعد مكّة المكرّمة، التي تشكل المحور التوحيديّ الأوّل، ومركز الاتّصال الروحيّ الأقدم في التاريخ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، إلّا أنّ غير المتيسّر هو نظم تلك الصور المبعثرة في منظومة منهجيّة تتيح للإنسان معرفة الدور الذي يمكن أن تلعبه مدينة القدس

(١) باحث إسلاميّ وأستاذ المنهجيّات في الجامعة اللبنانيّة. نال شهادة الدكتوراه في التاريخ من الجامعة اللبنانيّة. ترأس تحرير مجلّة المنطلق مدّةً من الزمن. له أعمال عدّة لا سيّما في ما يتعلّق بمقاصد الشريعة.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٩٦.

في مسار التحوّلات الحضاريّة والسياسيّة في العالم، وهذا ما سنتوفّر عليه هنا. لكن، قبل المباشرة في تركيب الرؤية، لا بدّ من الالتفات إلى ما يميّز القدس عن مكة المكرّمة، لأنّ ذلك يتيح لنا ولوج الرؤية المزمع بلورتها عن المدينة، موضوع معالجتنا. فالقدس من منظار تاريخيّ – تاريخ حركة الأنبياء – تسجّل رُجحانًا في الحضور الرساليّ على ثاني القبلتَين وأوّل الحرمَين، مكة المكرّمة، فقد تعاقب على التحرّك فيها عدد كبير من الأنبياء يفوق بكثير ما شهدته مكّة وغيرها من المدن المقدّسة، وهذا الأمر وإن كان لا يلغي فرادة المدينة المقدّسة الأولى في الإسلام، باعتبار محوريّتها التوحيديّة واحتضانها لأوّل بيت للعبادة وضع للناس، كما سبقت الإشارة، غير أنّ اتّصاف القدس بميزتها التاريخيّة كحاضنة لمعظم حركة الأنبياء عبر التاريخ جعلها عنوانًا لمحور توحيديّ آخر ذي خاصّيّة حركيّة ودعوتيّة لم تسجّل لمكة المكرّمة كما هو معروف. هذا الامتياز تؤكّده النصوص الكثيرة في **القرآن الكريم** والسنّة. والمأثورات التاريخيّة من جانبها تثبت حقيقة احتضان «القدس» والأرض المباركة حولها لأضرحة عدد كبير من الأنبياء: إبراهيم الخليل، وولده إسحاق، ويعقوب، ويوسف، عليهم جميعًا السلام[٣]، وانتساب عدد كبير منهم إلى هذه الأرض المباركة؛ كالنبيّ إبراهيم الذي هو أبو الأنبياء، ومن أوائل المبشّرين بالله ووحدانيّته[٤]، ولوط (ع) وهو ابن أخ النبيّ إبراهيم (ع)، الذي كان قد آمن بعمّه وبشّر بدينه وهاجر معه إلى الأرض المباركة[٥]، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وزكريّا، ويحيى، وأخيرًا عيسى بن مريم، عليهم السلام جميعًا.

---

(٣) يُذكر أنّ هؤلاء الأنبياء مدفونون في مغارة واحدة في مدينة الخليل. راجع، محمّد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك** (بيروت: دار القلم)، الجزء ١؛ راجع أيضًا، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ابن الأثير)، **الكامل في التاريخ**، الطبعة ٤ (بيروت: دار الكتاب العربيّ، ١٩٨٣)، الجزء ١.

(٤) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، سورة **النمل**، الآيات ١٢٠ إلى ١٢٢.

(٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، سورة **الأنبياء**، الآية ٧١.

هذا، إلى جانب المئات من الأنبياء والقدّيسين الذين أتحفتنا المصادر المقدّسة من كتاب وسنّة بذكرهم.

كلّ هذا الحشد من الدعاة إلى الله تعالى أضفوا على أرض فلسطين عامّةً والقدس خاصّةً سمات مباركةً؛ في مقدّمتها اعتبار القدس عنوانًا لمسيرة الدعوات التوحيديّة في التاريخ. والسمة التوحيديّة المشار إليها كفيلة بتحويل مدينة «القدس» الشريفة إلى عنوان ومركز للتواصل مع مسيرة الدعوة المتطاولة للأنبياء والرسل الصالحين.

هذا التمهيد، هو حاجة في إطار المسألة المراد إثباتها هنا، فهو يعطي صورةً غايةً في الوضوح عن الأرض التي شكّلت تاريخيًّا مع مركزها – القدس – قاعدة التوحيد في العالم. كما يسهم هذا التمهيد، في إعطاء الحكم على أصالة كلّ المعتقدات التي ترنو ببصرها إليها أو تسعى لترتبط بها وتتواصل معها.

فالأرض المباركة، والقدس تحديدًا، هي العنوان الذي يختصر معاناة كلّ حركة الأنبياء الموحّدين، والمعاناة فيها صنو الاستقرار في رحابها، لا تفارقها حتّى قيام دولة العدل، الأمر الذي يفسّر استهدافها الدائم، حيث إنّه لم تلعب مدينة من المدن القائمة على وجه هذه البسيطة الدور الذي لعبته مدينة القدس في التاريخ. فهي وإن لم تكن من المدن التجاريّة المهمّة، ولا من المدن الزراعيّة أو الصناعيّة على رغم وقوعها بين البادية في الشرق والبحر من الغرب، إلّا أنّها كانت على مرّ الدهور محطّ أنظار الغزاة والفاتحين، فحوصرت مرارًا، وهُدّمت تكرارًا، وهجّرت، وأُعيد بناؤها ثماني عشرة مرةً في التاريخ، ولكنّها بالرغم من هذا كلّه ظلّت قائمةً في هذا الوجود، وظلّ اسمها مذكورًا في طليعة المدن والبلدان،

ذلك لأنّها مقدّسة في نظر جميع الأديان[٦].

أمّا بناء المسجد في القدس فقد اختُلف أيضًا في اسم أوّل بُناته، حتّى قال بعضهم: إنّ أوّل بُناته هو آدم (ع)، وبعضهم أعاد ذلك إلى الملائكة[٧]. أمّا الشيء الثابت، فهو أنّ القدس مدينة قديمة، وغاية في القدم، كما يُستدلّ من الآثار، وما عمارة داود وسليمان (ع) لمدينة القَدس إلّا تجديد البناء القديم ليس إلا[٨]. وبالنسبة لبناء المسجد، فهنالك أخبار تقول إنّ يوشع بن نون (ع) هو الذي نصب «قبّة الزمان» التي كان قد أقامها موسى (ع)، وكانت تحمل في التيه كرمز مقدّس للعبادة، لقد نصبها يوشع (ع) على صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلّون إليها، فلما بادت صلّوا إلى محلّلها وهي الصخرة، فلهذا كانت قِبلة الأنبياء (ع)[٩].

أمّا الأخبار التي تبانى عليها أغلب المؤرّخين فهي أنّ داود هو الذي بنى المسجد – أي بيت المقدس – وعلى الصخرة قبّة في الموضع الذي قدّسه الله تعالى في «إيليا»[١٠].

هذا العرض السريع يهدف إلى الكشف عن الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس، مع ملاحظة الظرف الذي تمّ فيه والمرحلة التي كانت تمرّ بها دعوة الرسول محمّد (ص)، لأنّ هذه مجتمعةً يمكن أن تكشف عن بعض وجوه الحكمة في الإسراء إلى القدس تحديدًا.

وإذا أخذنا بالمعطى التاريخيّ المكثّف الذي يدلّ، وبتوافق تامّ مع

---

(٦) جعفر الخليلي، **موسوعة العتبات المقدّسة**، الطبعة ٢ (بيروت: منشورات الأعلميّ، ١٩٨٧)، القسم ٢: «قسم القدس»، الجزء ١، الصفحة ٤٩.

(٧) المصدر نفسه، الصفحة ٥٣.

(٨) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، نقلًا عن: المصدر نفسه.

(٩) أبو الفداء الحافظ (ابن كثير)، **البداية والنهاية** (بيروت: دار الفكر)، الجزء ٢، الصفحة ٣٠٨.

(١٠) **موسوعة العتبات المقدّسة**، مصدر سابق، القسم ٢: «قسم القدس»، الجزء ١، الصفحة ٥٨.

النصّ الدينيّ في **التوراة والإنجيل والقرآن**، على أنّ القدس هي قِبلة الأنبياء، ومنطلق التوحيد، فإنّ الإسراء إليها (القدس) لا إلى سواها من الحواضر العلميّة والفكريّة في العالم، كالإسكندريّة، وأثينا، وروما، وغيرها من المدن المهمّة في التاريخ، لا بدّ أن يكشف عن مغزًى دينيّ غاية في العمق. وإذا لحظنا، مع هذه الالتفاتة المهمّة، توقيت عمليّة الإسراء التي اختُلف في حدوثها كثيرًا، فمن قائل: إنّها حدثت في السنة الثالثة من مبعث الرسول محمّد (ص)، كما يروى عن عليّ (ع)[١١]، إلى قائل بأنّها حدثت «في ليلة إحدى وعشرين من رمضان قبل الهجرة بستّة أشهر»[١٢]، وقيل: «في السابع عشر من شهر رمضان، وقيل: ليلة الاثنين من شهر ربيع الأوّل بعد النبوّة بسنتَين»[١٣]، والأخيرة التي تشير إلى حدوث العمليّة قبل البدء بالمرحلة العلنيّة في الدعوة، تعضد النظرة الأولى التي يمكن انتزاعها من الرواية المنقولة عن الإمام عليّ (ع)، والتي إن صحّت فإنّها تحمل في دلالاتها الكثير من المعاني، لأنّها تقرن بين الإسراء والمعراج وبين بداية الدعوة العلنيّة، فتكون العمليّة بمثابة تحضير إلهيّ للرسول (ص) لكي يباشر مهمّة الدعوة والتبليغ، وبالتالي بناء المجتمع الرساليّ الأصيل من منطلق نظرة شموليّة للكون اكتسبها من المعراج، وأخرى اجتماعيّة إنسانيّة اكتسبها من الإسراء إلى بيت المقدس.

ونقل المجلسي عن الواقدي أنّ المسرى كان

في ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان في السنة الثانية عشر من النبوّة قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا، وقيل: ليلة سبع عشرة من ربيع الأوّل قبل

---

(١١) راجع ما يفيد التوقيت نفسه في: الحافظ محبّ الدين (الطبري)، **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، ١٩٨١)، الصفحة ٣٦.

(١٢) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الطبعة ١ (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ٢٠٠١)، الجزء ٨، الصفحة ٣١٥.

(١٣) المصدر نفسه.

الهجرة بسنة من شعب أبي طالب، وقيل: ليلة سبع وعشرين من رجب، وقيل: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وشهرين، وذلك سنة ثلاث وخمسين من الفيل(١٤).

ويؤيّد هذه المجموعة من الأقوال ما ذكره ابن هشام من أنّه أُسرِي برسول الله (ص) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس من إيلياء، في وقت كان قد فشا الإسلام بمكّة في قريش وفي القبائل كلّها(١٥)، وفي طبقات ابن سعد ما يتوافق مع ابن هشام والواقدي من أنّ الإسراء حصل ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأوّل قبل الهجرة بسنة من شعب أبي طالب(١٦).

أمّا ابن كثير، فلم يذكر السنة، وإنّما نقل ردّة فعل أهل مكّة، وهي تعكس مناخ التشنّج والتكذيب الذي كان سائدًا في بدايات البعثة(١٧). فيما ذهب ابن الأثير إلى ترجيح قولَين فقط، واحد اعتبر حدوثه قبل الهجرة بثلاث سنين، وآخر بسنة واحدة(١٨).

ويقترب الطبرسي منِ أجواء الروايتَين الأوليَين اللتَين تحدّدان بداية البعثة لا نهاية المرحلة المكيّة موعدًا لعمليّة الإسراء، وذلك بإشارته إلى أنّ عودته من المعراج كانت بداية الحصار الاقتصاديّ، حيث دخل في شعب أبي طالب(١٩).

---

(١٤) المصدر نفسه، الصفحة ٤٠٣؛ وراجع، المازندراني، **مناقب آل أبي طالب** (بيروت: دار الأضواء، ١٩٨٥)، الجزء ١، الصفحة ١٧٧.

(١٥) أبو محمّد عبد الملك (ابن هشام)، **السيرة النبويّة**، تعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد (بيروت: دار الجليل، ١٩٧٥)، الجزء ٢، الصفحة ٣٦.

(١٦) محمّد ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الطبعة ١ (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨)، الجزء ١، الصفحة ٢١٤.

(١٧) **البداية والنهاية**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٠٣.

(١٨) **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٣٣.

(١٩) الفضل بن الحسن (الطبرسي)، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، الطبعة ٣ (قم: منشورات الكتب الإسلاميّة)، الصفحة ٤٩؛ راجع، أيضًا، **مناقب آل أبي طالب**، مصدر سابق، الصفحة ١٨٠.

والراجح أنّ الإسراء قد تمّ قبل السنة الخامسة للبعثة، أي قبل دخول بني هاشم إلى الشعب وبدء الحصار، ممّا يعزّز الصورة الأولى التي سبق وتحدّثنا عنها، واعتبرنا فيها الإسراء والمعراج خطوتَين تمهيديّتَين، كانتا ضرورتَين للمباشرة بالدعوة العالميّة الأخيرة، حيث زوّدتا الرسول (ص) بأفق واسع جدًّا على مستويَي الجغرافيا العاموديّة والأفقيّة.

ومهما يكن الوقت الحقيقيّ والواقعيّ للإسراء والمعراج، فإنّ اختبار القدس الشريف كمدًى للإسراء الأرضيّ، يستلزم التأمّل والتوقّف طويلًا.

فالقدس، كما عكسَ العرض التاريخيّ الموجز، عاصمة التوحيد وقاعدته بالمعنى الدعوتيّ الحركيّ، لأنّها بغير هذا الاعتبار تحتلّ المرتبة الثانية في سلسلة المحاور التوحيديّة بعد مكة المكرّمة. بل هي المظهر الروحيّ في الذاكرة التاريخيّة، والاتّصال بها والتواصل معها هما بمثابة اتّحاد وتوحّد معها بما ترمز إليه وتحمله من قيم روحيّة مشدودة إلى الأصل العقائديّ الذي عنونها، وهو التوحيد.

ولمّا كانت المرحلة المكّيّة تتّسم، كما هو معروف بالإعداد الروحيّ-الفكريّ وفق الأساس التوحيديّ، فإنّ الإسراء في هذه المرحلة هو إعلان الالتحاق بالقاعدة-الرمز، أي القدس، بما تنطوي عليه من مخزون روحيّ وتراث عقائديّ ضخم مشدود إلى التوحيد كأصل ثابت.

وطالما كانت القدس قِبلة الموحّدين والأنبياء عبر العصور، فلمَ لا تكون كذلك بالنسبة للمسلمين؟ ولعلّ ذلك كان يكمن في الحكمة من خطوة اتّخاذها قِبلةً للمسلمين قبل التحوّل إلى الكعبة المشرّفة.

وسواء كان الإسراء في بدايات البعثة أم في نهاية المرحلة المكّيّة، فإنّه إرادة إلهيّة بالتحاق المسيرة الإسلاميّة بالمسار الأصل، وبيانٌ مكثّف

لوحدة جذور دعوات الأنبياء، وأنّ الإسلام لا يختلف من حيث المنطلقات الروحيّة والعقائديّة عن إسلام إبراهيم، ولوط، ويعقوب، وإسحاق، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وزكريّا، ويحيى، وعيسى، عليهم السلام. فإسلام محمّد هو نفسه إسلام هؤلاء جميعًا. والقدس التي كانت قِبلةً لجميع هؤلاء الأنبياء لا بدّ أن تكون أيضًا قبلةً للمسلمين، طالما لم يمتز الإسلام في المرحلة المكّيّة عن الدعوات السابقة من حيث تأكيده على عقيدة التوحيد. ولهذا كان الإسراء التحاقًا رمزيًّا بقاعدة التوحيد، بينما كان اختيار المسجد الأقصى قِبلةً للمسلمين التحاقًا عمليًّا عبّر عنه المسلمون يوميًّا من خلال صلواتهم.

إذًا، المرحلة المكّيّة كانت عنوانًا للون خاصّ من التربية تكاد تُجمع عليه معظم كتب السيرة والتاريخ، وهو لون الإعداد الروحيّ–العقائديّ، وقد أدّى التسالم على هذه المسألة إلى محاكمة الآيات القرآنيّة الكريمة المشتبه كونها مكّيّةً أو مدنيّةً على أساس جوّ ومناخ تلك الآيات، فإن كانت طبيعتها روحيّةً رجّح المسلمون مكّيّتها على مدنيّتها، وإن كانت طبيعتها تشريعيّةً رجّحوا مدنيّتها على مكّيّتها. وهذا اللون الخاصّ والطبيعة المميّزة للمرحلة المكّيّة يتوافقان إلى حدٍّ كبير مع لون وطبيعة دعوات الأنبياء، كلّ الأنبياء، والصالحين الذين اعتبروا القدس قِبلةً لهم. فوحدة القبلة والاتّجاه تحتّمهما وحدة الخصائص والسمات التبليغيّة للرسالات السماويّة ذات الطبيعة الإيمانيّة–الروحيّة المحضة.

هذا التنظير للمسألة لم ينشأ من فراغ، فالروايات التي اهتمّت بتفاصيل رحلة الإسراء والمعراج تدعم هذا الفهم النظريّ وتعطيه بُعدًا واقعيًّا يصعب التشكيك فيه. وينقل السيّد الطباطبائي في بحثه الروائيّ عن الإسراء والمعراج، ما يؤكّد حقيقة المغزى الالتحاقيّ والتواصليّ مع الأنبياء. فقد ذكر أنّ الرسول (ص)، وأثناء عمليّة الإسراء، طلب منه

جبرائيل (ع) أن يصلّي بطور سيناء، حيث كلّم الله موسى (ع) تكليمًا، وفي بيت لحم بناحية بيت المقدس، حيث ولد عيسى بن مريم (ع)، قبل أن يُصلّي إلى بيت المقدس[٢٠].

وعند وصوله إلى المسجد، ربط البراق بالحلقة التي كانت الأنبياء (ع) تَربط بها، وهذه إشارة مهمّة في المقام، ثمّ يذكر الرسول (ص) أنّه دخل المسجد ومعه جبرائيل (ع)، فوجد إبراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام، قد جُمعوا إليه وأقيمت الصلاة[٢١].

وفي رواية أخرى أوردها الطباطبائي، ذكرت أنّ الله تعالى حشر الأوّلين والآخرين من النبيّين والمرسلين[٢٢].

وفي هذا السياق، يحسن التوقّف عند دلالة العروج إلى السماء من الصخرة تحديدًا التي بنيت عليها القبّة وكانت عبر التاريخ قِبلة الأنبياء والمرسلين. فانطلاق العروج من الصخرة نفسها التي يتوجّه إليها الناس في صلاتهم، نعني أنّها تقع على محور مقدّس يربط بين السماء والأرض. والالتحاق الذي أشرنا إليه سابقًا، اقتصر على التواصل الروحيّ والعقائديّ، ولم يتعدّ ذلك إلى مسألة قيادة محمّد (ص) لمسيرة الإسلام التي بعث لأجلها الأنبياء، كلّ الأنبياء، وضحّى جميعهم لتعزيزها واستمرارها. فإنّ الارتباط بالمحور لم يعنِ أبدًا تفرّع قيادة الرسول محمّد (ص)، وإنّما خصّه الله تعالى بدرجة هي أعلى من درجات كلّ الأنبياء، وهذا ما تؤكّده الروايات الكثيرة التي تحدّثت عن إمامة محمّد (ص)

---

(٢٠) محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، الطبعة ٢ (بيروت: مؤسّسة الأعلميّ، ١٩٧٤)، الجزء ١٣، الصفحة ١٨.

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٩.

للصلاة التي أدّاها خلفه جميع القوم من الأنبياء والمرسلين[٢٣]، ويصف النبيّ (ص) الصورة في إحدى الروايات بقوله:

دخلت المسجد ومعي جبرائيل إلى جنبي، فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام، قد جُمعوا إليّ وأقيمت الصلاة، ولا أشكّ إلّا وجبرائيل سيتقدّمنا، فلمّا استووا أخذ جبرائيل بعضدي فقدّمني وأممتهم ولا فخر[٢٤].

والتواصل المشار إليه، أو الالتحاق، لم يكن كما يبدو إلّا للتأسيس، بمعنى أنّ تأكيد وحدة المحور الكونيّ ووحدة الروح والمعتقد هو أمر حيويّ لانخراط أتباع مختلف الديانات السماويّة في الديانة الإسلاميّة التي بشّر بها محمّد (ص). فالإسلام لم يكن أصلًا روحيًّا توحيديًّا مقابل أصول أخرى، وإنّما هو متّحد الأصل مع إسلام إبراهيم والأنبياء عليهم السلام الذين تلوه. غير أنّ التأسيس ووحدة المنطلق لا يلغيان الخصوصيّة ولا ينفيانها، فعلى قاعدة الأصل ابتنت خصوصيّة الإسلام، التي أريد لها أن تكون ذاتَ سمة مستقلّة، ومدعاةً للاعتقاد بها بمعزل عن الديانات السابقة. وقد بدأت المرحلة المدنيّة، ذات السمات والخصائص المميّزة عن المرحلة المكّيّة، تعبّر، لا بل تشير، إلى بداية عمليّة الإلحاق من خلال إظهار تمايز الإسلام، ومطالبة بقيّة الموحّدين في العالم والمؤمنين بالرسالات السماويّة باعتناق هذه العقيدة الجديدة التي ليست هي تمامًا الأديان السابقة.

وقد رمز الأمر الإلهيّ بتحويل جهة القِبلة من بيت المقدس – المسجد الأقصى – إلى الكعبة المشرّفة في مكة، مع بدايات المرحلة المدنيّة، إلى

---

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) المصدر نفسه، الصفحة ١٨.

بدايات المركزة الجديدة القائمة على خصوصيّة التشريع الإسلاميّ، ورمز أيضًا إلى هيمنة الإسلام واحتضانه لمختلف المفاهيم والقيم، مضافًا إليها المنظومة التشريعيّة التي كانت تفتقدها معظم الدعوات السابقة. ولهذه العلّة - والله أعلم - كان الأمر الإلهيّ بتحويل القِبلة في بدايات المرحلة المدنيّة، وفق ما زوّدتنا به معظم الروايات والمصادر، مع اختلاف طفيف في الزمن تعكسه العديد من الروايات التالية:

عن معاوية بن عمّار قال: قلت لأبي عبد الله (ع): متى صرف رسول الله (ص) إلى الكعبة؟ قال: بعد رجوعه من بدر، وكان يصلّي إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرًا ثمّ أعيد إلى الكعبة(٢٥).

وعن محمّد بن عليّ بن الحسين (ع) قال: صلّى رسول الله (ص) إلى بيت المقدس بعد النبوّة ثلاث عشر سنة بمكة، وتسعة عشر شهرًا بالمدينة، ثم عيّرته اليهود فقالوا له: إنّك تابع لقبلتنا فاغتمّ لذلك غمًّا شديدًا، فلمّا كان في بعض الليل خرج (ع) يقلّب وجهه في آفاق السماء، فلمّا أصبح صلّى الغداة، فلما صلّى من الظهر ركعتَين جاء جبرائيل (ع) فقال له: قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينك قِبلةً ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، الآية(٢٦).

وسياق الآية القرآنيّة الكريمة التي ورد بعضها هنا، لا يتعارض مع الرؤية النظريّة والحكمة المرجّحة في المعالجة الجارية، خاصّةً إذا ما تمّت ملاحظة خصوصيّة الإسلام عن باقي المعتقدات التوحيديّة السماويّة التي لم تتّصف بالتكامل في شقّيها الاعتقاديّ والتشريعيّ. وهذه الخصوصيّة

---

(٢٥) محمّد بن الحسن (الحرّ العامليّ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الطبعة ٤ (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، ١٣٩١هـ.ش.)، الجزء ٢، الصفحة ٢١٦.

(٢٦) المصدر نفسه، الصفحتان ٢١٨ و٢١٩؛ وراجع، البداية والنهاية، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٥٢.

كانت تلحّ على الرسول (ص) بضرورة التمايز وهو ينتظر كرامةً على هذا المستوى، فكان النسخ لحكم القبلة من وجوب استقبال بيت المقدس حتّى وإن استلزم استدبار الكعبة، إلى وجوب استقبال الكعبة وإن استوجب استدبار بيت المقدس.

وتلازُم النسخ مع بداية الصراع العسكريّ بين المسلمين واليهود لا يقلّلِ من أهمّيّة دلالات البدء بالمرحلة المدنيّة، وما امتازت به من بداية تشكّل المجتمع الإسلاميّ السياسيّ-العقائديّ، التي هي خصيصة تفترض إحداث تحوّل يميّز بين الإسلام وباقي الديانات السماويّة الأخرى. وهذا الأمر، بما ينطوي عليه من إشارات مهمّة، دفع السيّد الطباطبائي إلى القول بأنّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة يعدّ من أعظم الحوادث الدينيّة وأهمّ التَشريعات التي قوبل بها الناس بعد هجرة النبيّ (ص) إلى المدينة، حيث شرع الإسلام في تحقيق أصوله، ونشر معارفه، وبثّ حقائقه، وهو ما أثار حفيظة اليهود في المدينة، الذين لم يهدأ لهم بال بعد هذا التشريع، لأنّهم كانوا يرون أنّه يُبطل واحدًا من أعظم مفاخرهم الدينيّة وهو القبلة، واتّباع غيرهم لهم فيها وتقدّمهم على من هو دونهم في هذا الشعار الديني[٢٧].

لا شكّ أنّ قيمة التوجّه إلى بيت المقدس في مرحلة الإعداد الروحيّ والعقائديّ، التي كانت تستدعي الانخراط الرويّ والتواصل العقائديّ مع ذلك الإرث الروحيّ والمخزون العقائديّ المبارك الذي كان يتراكم خلال مسيرة الأنبياء (ع) والذي كانت القدس وقبّة الصخرة تحديدًا تعبّر عنه وترمز إليه، كان أولى من التوجّه إلى الكعبة.

انطلاقًا من هذا الفهم يسهل تصوّر ممارسة الرسول (ص)، وأسلوب

---

(٢٧) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، الصفحة ٣١٧.

تعاطيه مع القبلتَين المتعاقبتَين. فعن الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال: «سألته هل كان رسول الله (ص) يصلّي إلى بيت المقدّس؟ قال: نعم، فقلت: أكان يجعل الكعبة خلف ظهره فقال: أمّا إذا كان بمكّة فلا، وأمّا إذا هاجر إلى المدينة فنعم حتّى حوّل إلى الكعبة»(٢٨).

أمّا ملاحظة علّة اختيار بيت المقدس في مصلحة تربية الناس وتكميلهم، وتمحيص المؤمنين من غيرهم، والمطيعين من العاصين، والمنقادين من المتمرّدين، بمقتضى مدلول الآية القرآنيّة الكريمة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾(٢٩)، يلغي ملاحظة التواصل مع حركة الأنبياء عليهم السلام، وإلّا لِمَ كان اختيار بيت المقدس دون سواه لولا الخصوصيّة فيه؟

والعلقة المشار إليها سابقًا بين القِبلة والعقيدة، أي الملازمة بين اختيار المسجد الأقصى قِبلةً للمسلمين والوحدة الروحيّة المراد ترسيخها، ومن ثمّ الملازمة بين تحويل القبلة والخصوصيّة التشريعيّة، يمكن فهمها من جوّ الآيات القرآنيّة الكريمة التي تعرّضت لمسألة جهة القِبلة الواجبة، حيث يلفت السياق إلى هذا المضمون، أو يمكننا استيحاء ذلك من جوّ الآيات.

فبعد أن يعرض القرآن الكريم ما سيقوله السفهاء عن النبيّ (ص) والمسلمين عندما تتحوّل جهة القِبلة، ينتقل للحديث مباشرةً عن الخصوصيّة وعن جعل المسلمين أمّةً وسطًا وشهيدة، وجعْل الرسول شهيدًا على الأمّة، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

(٢٨) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الصفحة ٢١٦؛ راجع، أيضًا، **البداية والنهاية**، مصدر سابق، الصفحة ٢٥٣.

(٢٩) سورة **البقرة**، الآية ١٤٣.

أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣٠]، وإذا قرنّا هاتين الآيتين بآية أخرى وردت في سورة النساء، ويقول الله تعالى فيها: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾[٣١]، يتحصّل المعنى الذي سبق وأشير إليه في سياق موضوع المعالجة، وهو شهادة النبيّ (ص) على كلّ الأنبياء، وشهادة أمّته على كلّ الأمم، ممّا يعني بالتحديد تلك الخصوصيّة التي رمز إليها التحوّل عن قبلة الأنبياء إلى قبلة خاصّة بالمسلمين سبق وبناها أبو الأنبياء إبراهيم (ع)، الذي سمّانا المسلمين من قبل، وذلك حين دعا ربّه وقال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، فاستجاب الله دعوة النبيّ إبراهيم (ع)، وجعل محمّدًا (ص)، وأتباعه المسلمين، يسلّمون الحكم له والأمر من غير عصيان واستنكاف، ولذلك ارتفع الحرج عنهم في الدين، فهم المجتبون المهديّون إلى الصراط[٣٢]، قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[٣٣].

وخلاصة التصوّر المستفاد من الاهتمام غير العاديّ بالقدس، الذي برز من خلال الإسراء إليها والمعراج من قبّة الصخرة – قِبلة الأنبياء – إلى السماء، أو من خلال نفس التوجّه إليها في الصلاة كقِبلة للمسلمين، والذي تمّ كلّه في المرحلة المكيّة التي كانت تحمل سمات محدّدةً ومعيّنةً أبرزها طابعها الروحيّ، وثقافتها العقائديّة التأسيسيّة؛ خلاصة التصوّر أنّ الإسلام المحمّديّ هو آخر حلقات الإسلام النبويّ الذي حمل عناوين مختلفةً تبعًا لأسماء وأدوار الأنبياء السابقين، وهو بالتالي غير مفصولٍ من حيث الجذور الروحيّة والاعتقاديّة عن الحلقات السابقة،

(٣٠) سورة البقرة، الآيتان ١٤٢ و١٤٣.
(٣١) سورة النساء، الآية ٤١.
(٣٢) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، الصفحة ٣٢٢.
(٣٣) سورة الحجّ، الآية ٧٨.

وعن حركة الأنبياء، بل إنّ انطلاقته مشدودة إلى خلفيّة مشتركة، كان لا بدّ من التعبير عنها بربط المسلمين في المرحلة الأولى وتوجيه عنايتهم نحو بيت المقدس، ليتأسّس على هذه العلاقة وذلك الربط بناء الخصوصيّة التشريعيّة الإسلاميّة التي يحتاج التعبير عنها ليس فقط إلى الأحكام التفصيليّة المختلفة عن أحكام الأنبياء، وإنّما تحتاج الخصوصيّة إلى ما يُعنونها ويرمز إليها. فكان تحويل القبلة وتمايزها عن المسجد الأقصى هو رمز الخصوصيّة، وقد تزامن ذلك مع بدايات عهد التشريع في المرحلة المدنيّة، حيث نزل الحكم الشرعيّ الإلهيّ بضرورة التحوّل إلى الكعبة المشرّفة بعد فترة وجيزة جدًّا من الهجرة.

هذه الصورة–الرمز في بدايات البعثة والهجرة الشريفتَين، تعود إلى البروز لكن بشكل معكوس في آخر الزمان، فبعد أن تنطلق الدعوة الإسلاميّة بخصوصيّتها التشريعيّة، المرتكزة إلى القاعدة التوحيديّة المشتركة بين مختلف الديانات السماويّة والدعوات النبويّة، وتتّسع ليصل صوتها إلى مناطق واسعة من العالم، إمّا من خلال حضورها على الساحة الدوليّة بهيئة سلطة سياسيّة – كما كان الحال في العهود الأولى، حيث شارف المسلمون على نصر كبير في أوروبا بعد اجتياز «البرنيه» على يد عبد الرحمن الغافقي – أو من خلال وظيفة الدعوة والتبليغ التي تولّى إنجازها جمع كبير من المؤمنين العاملين على مرّ العصور والعهود، أو بواسطة النتاج الفكريّ الذي بدأ يغزو العالم وبات يشكل بنفسه حجّةً دامغةً، وأخيرًا بعد انتصار الثورة الإسلاميّة المباركة، التي دوّى صوتها في الآفاق، وشعر باهتزاز الأمواج التي ولدتها كلّ من هو على سطح البسيطة من الناس الذين يعيشون التواصل الفعليّ والحقيقيّ مع أحداث العالم وتحوّلاته، تعود الخصوصيّة إلى الإسراء من جديد، لكن لا على صورة الإسراء الإلهيّ إلى بيت المقدس، حيث كان العرض حينذاك، والله أعلم، التواصل مع القاعدة التوحيديّة، المسجد الأقصى، وإنّما بصورة

احتوائيّة، بمعنى أنّ الإسراء الجديد يهدف إلى إلحاق قاعدة التوحيد الأولى بما ترمز (أي بيت المقدس) بمكّة، وذلك بعد أن تكون الخصوصيّة قد ترسّخت واتّضحت معالمها التوحيديّة، بما لا يدع مجالًا للانفكاك والتشكيك مطلقًا. ويصبح إطلاق كلمة إسلام كافيًا لتبادر التوحيد وذلك لقوّة العلقة والملازمة بين الإسلام والتوحيد، حتّى تتحوّل دلالة كلّ منهما على الآخر إلى دلالة تلازميّة ذاتيّة لا يمكن انفكاكهما إطلاقًا، عندها لا حاجة لإبقاء القاعدة التوحيديّة بما ترمز بمنأى عن الخصوصيّة الإسلاميّة المكيّة، ولا بدّ من اندماجهما واندكاكهما وفق معيار شهادة الأمّة الإسلاميّة على الناس وشهادة النبيّ (ص) على الأمّة.

قد يُقال إنّ الاندكاك وتبعيّة القدس بما ترمز لمكّة المشرّفة، كانا مطلوبَين منذ اللحظة الأولى لبداية بعثة الرسول (ص)، فما معنى الكلام في آخر الزمن عن هذه المسألة والإشارة إلى ضرورة تبعيّة مختلفة الديانات وانخراطها في إطار الديانة الإسلاميّة المحمّديّة الأصيلة؟ ويُجاب على ذلك بأنّ دعوة الإسلام في بدايات حضوره على المستويَين التبليغيّ-الدعوتيّ والتشريعيّ كانت دون الاستعانة بأنبياء ورسل الديانات السماويّة الأخرى، ولهذا السبب لم يقتنع السواد الأعظم من أتباع تلك الديانات بسلامة أطروحة محمّد (ص)، وبقيت مشكّكةً ومتمسّكةً بمعتقداتها متوهّمةً رضى أنبيائها جميعًا، وقد حفّزها توهّمها ليس إلى التمسّك فقط بموقفها وقناعاتها، وإنّما إلى استئناف دعوتها لكسب مؤمنين جدد، مستخدمةً مختلف وسائل الدعاية والتبشير دون أن تهمل أو تستبعد العامل الاقتصاديّ والأنشطة الإنسانيّة، تمامًا كما نلاحظ ذلك في أفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينيّة، وجنوب شرق آسيا. بينما ستختلف الدعوة في المرحلة القادمة عن سابقتها من المراحل، حيث سيعلن بعض من كان يُتوهّم تميّزه ومعارضته للدعوة الجديدة، وهو من الأنبياء، تأييده ومبايعته لإمام المسلمين عمليًّا، الأمر الذي سيسهم في إسقاط ما تبقّى

من حجج ومعاذير يتمسّك بها أتباعه.

أمّا إشارة الحسم والاندكاك على قاعدة امتياز الخصوصيّة، فستظهر تدريجيًّا، بدءًا من ظهور الإمام الحجّة (عج) في مكّة، حيث ستكون وجهته في التحرّك إلى بيت المقدس، قال أبو عبد الله (ع): إنّ أوّل من يبايع القائم جبرائيل (ع)، ينزل في صورة طير أبيض فيبايعه ثمّ يضع رجلًا على بيت الله الحرام ورجلًا على بيت المقدس، ثمّ ينادي بصوت طلق ذلق تسمعه الخلائق ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٣٤].

والرواية، أيضًا، تعطي صورةً رمزيّةً إلى الوجهة التي سيقصدها الإمام المهديّ (عج) بُعيد ظهوره في مكّة، ممّا يؤكّد التصوّر الذي سبق وأشرنا إليه، وهو بدء الإسلام بحركة تعاكس حركته في صدر الإسلام، بالنسبة لبيت المقدس. ففي بدايات البعثة كان الإسلام - بدعوته الجديدة - بحاجة إلى تواصل مع بيت المقدس ليؤسّس على هذا التواصل قاعدته التشريعيّة الخاصّة، أمّا في عهد الإمام المهديّ (عج)، فالإسلام سيكون قد انتهى من بناء صورته الكاملة في أذهان الناس، كلّ الناس في العالم، ولا يبقى إلّا انخراط الدعوات العقائديّة السماويّة فيه واعتناقه، وسيكون ظهور عيسى (ع) مع الإمام المهديّ وصلاته خلفه إشارةً واضحةً جدًّا لبداية مرحلة أسلمة العالم كلّه، إذ ماذا سيبقى في أيدي أتباع عيسى (ع) من مبرّرات للتلكؤ والإعراض طالما أنّ رمزهم المقدّس قد أظهر تأييده ومبايعته وولاءه للإمام الحجّة (عج) من خلال أدائه للصلاة خلف الإمام مأمومًا[٣٥].

---

(٣٤) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الطبعة ٣ (طهران: كتابفروش إسلاميّة، ١٣٩٨هـ.ش.)، الجزء ٥٢، الصفحة ٢٨٦.

(٣٥) عن الحسن بن عليّ عليهما السلام، قال: «ما منّا أحدٌ إلّا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلّا القائم الذي يصلي خلفه روح الله عيسى بن مريم»؛ المصدر نفسه، الجزء ٥٢، الصفحة ٢٧٩.

ولعلّ الروايات الأخرى التي يذكرها المجلسي عن أبي عبد الله (ع) توحي بالفكرة نفسها وتعضدها. قال (ع):

سيأتي من مسجدكم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا [يعني مسجد مكّة] يعلم أهل مكّة أنّه لم يلد آباؤهم ولا أجدادهم [...] فبعث الله تبارك وتعالى ريحًا فتنادي بكلّ وادٍ: هذا المهديّ يقضي بقضاء داود وسليمان لا يريد عليه بيّنة(٣٦).

وفي نصّ ثالث صريح لا لبس فيه، تتّضح صورة التفضيل والمباركة الشاملة من كلّ الأنبياء والمرسلين وتأييدهم لخطوة الإمام الحجّة (عج). ففي رواية عن ابن محبوب رفعها إلى أبي جعفر (ع) قال:

إذا خسف بجيش السفياني [...] والقائم يومئذٍ بمكّة عند الكعبة مستجيرًا بها يقول: أنا وليّ الله، أنا أولى بالله وبمحمّد (ص)، فمن حاجّني في آدم فأنا أولى الناس بآدم، ومن حاجّني في نوح فأنا أولى الناس بنوح، ومن حاجّني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم، ومن حاجّني في محمّد فأنا أولى الناس بمحمّد، ومن حاجّني في النبيّين فأنا أولى الناس بالنبيّين، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فأنا بقيّة آدم، وخيرة نوح، ومصطفى إبراهيم، وصفوة محمّد، ألا ومن حاجّني في كتاب الله فأنا أولى الناس بكتاب الله، ألا ومن حاجّني في سنّة رسول الله فأنا أولى الناس بسنّة رسول الله وسيرته(٣٧).

إذًا، خطّ مكّة–القدس هو الذي سيقدّر له تغيير الوجه الحضاريّ للإنسانيّة، وسيكون له الدور الأبرز في التحوّل الشامل وعلي مختلف المستويات. فتحديد وجهة الصراع من أوّل الأمر يدل على موثّريّة هذا المحور – مكّة–القدس – في خيارات المتصارعين، ومن ثمّ في حسمه

---

(٣٦) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨٦.

(٣٧) المصدر نفسه، الصفحتان ٣٠٥ و٣٠٦.

على المستوى العالميّ.

وقد تضمّن القرآن الكريم إشارةً بالغة الأهمّيّة في هذا السياق، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[٣٨].

وقد ورد في تفسير الآية الكريمة أنّ عيسى (ع) ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فيؤمن به اليهود والنصارى ويصدّقوه[٣٩]، وإذا قرن بين هذا التفسير والرواية السابقة التي أشارت إلى صلاته مأمومًا خلف الإمام المهديّ (عج)، يتحصّل أنّ أنصار عيسى (ع) يتحوّلون بكاملهم إلى مسلمين، ومن هذه النقطة يبدأ التحوّل الهائل على المستوى العالميّ.

فمحور مكّة–القدس يختصر، فعلًا، وبما يمثّل على مستوى المجتمع الإنسانيّ، كلّ التراث الاعتقاديّ الهائل، وسلوك هذا المحور يرمي بالدرجة الأولى إلى الإمساك بمنابع الوحي الدينيّ ومركز الإلهام الروحيّ في العالم.

وهذه الحقيقة تساعد عليها اعتبارات حركة الصراع الحضاريّ التاريخيّة والفعليّة في هذا العالم، فإنّ مركز الثقل السياسيّ منذ عهد إبراهيم (ع) لم يتعدَّ الإطار الجغرافيّ لساحة مكّة–القدس، الذي يشمل نينوى وفلسطين. لقد كانت هذه المنطقة قلب العالم القديم، والقوّة الفاعلة في حضارته[٤٠]. وما من أحد من متديّني العالم على مختلف انتماءاتهم العقائديّة – اليهود، والنصارى، والمسلمين – إلّا ويتطلّع إلى الإمساك بأحد قطبَي المحور أو القطبَين كليهما. وليس على سبيل الاتّفاق والمصادفة أن تعبّر سيطرة المسلمين على قطبَي الخطّ عن وضعيّة سياسيّة

(٣٨) سورة النساء، الآية ١٥٩.

(٣٩) عليّ كوراني، **الممهّدون للمهديّ: دراسة في الخريطة السياسيّة لعصر الظهور**، الطبعة ١ (مكتب الإعلام الإسلاميّ)، الصفحة ٤٦.

(٤٠) المصدر نفسه، الصفحة ٤٦.

وفكريّة متماسكة، بينما يؤشّر إفلات أحد القطبَين من قبضة المسلمين إلى حالة ضعف ووهن استثنائيّتَين.

وقد تكون هذه المسألة في اعتبارات العقل الغربيّ الذي ما انفكّ يحاول جاهدًا لفصل القطبَين والاستحواذ على أحدهما كخطوة أولى، وما التحفّز الصليبيّ القديم للسيطرة على القدس ومحاولاتهم احتلالها إلّا دليلٌ على استيعاب كامل لنقاط الضعف والقوّة في المنطقة.

لقد حاول الغرب كثيرًا الفصل، وفي مراحل ومحطّات زمنيّة محدّدة، بين القطبَين وتمكنوا قديمًا من الإمساك بأحدهما، على أثر الغزو الصليبيّ الأوّل (١٠٩٦م)، وسعوا للسيطرة عليها لاحقًا بعد تحريرها، وخاصّة أثناء غزوة نابليون بونابرت إلى مصر (١٧٩٨م)، وأبقوها حاضرةً في ذاكرتهم متحيّنين الفرص، وقد عبّروا عن رغبتهم فور شعورهم بالغلبة والسيطرة على الدولة العثمانيّة أثناء الحرب العالميّة الأولى، وذلك عندما منحوا اليهود وعدًا بإقامة دولتهم في فلسطين عشيّة انتصارهم النهائيّ في هذه الحرب عام ١٩١٧م.

والرغبة الدائمة في السيطرة على أحد قطبَي محور مكّة-القدس لا يعني عدم وجود رغبة مماثلة في السيطرة على القطب الآخر الذي يتّسم بكونه إسلاميًّا محضًا، نعني به مكّة، بل على خلاف المتصوّر، فإنّ الغرب يسعى جاهدًا للإمساك بالقطب الثاني، لأنّ بقاءه متحرّرًا يعني، بالنسبة للغرب، دوام الأرق والحذر من نهوضه وتحرّكه باتّجاه القطب الثاني، القدس.

وقد تحقّق للغرب ما أراد منذ عقود عندما أمسك بالقطب الثاني بالواسطة، عبر وكلاء محليّين يقدّمون له فروض الطاعة والولاء.

ولعلّ صورة الواقع الراهن الذي شُلّت فيه حركة القطب الأوّل رمز الخصوصيّة الإسلاميّة، أي مكّة، تفترض بذل جهود جبّارة لإعادة العصب إلى مكّة كي تمارس دورها في إحياء محور مكّة-القدس، بحيث تقود هي ومنها حركة المسلمين نحو القطب الثاني الذي يعتبر ربطه مقدّمةً لازمةً وضروريّةً لإحياء مشروع أسلمة العالم، وبالتالي إحداث التغيير الحضاريّ المتوخّى.

ولا يُعتبر التسليم بمقدّميّة فتح القدس لأيّ تغيّر جغرافيّ-سياسيّ-عقائديّ في العالم ادّعاءً، فالتاريخ يؤكّد هذه المقولة ويثبّتها في أكثر من مفصل وحقبة، فاتّساع حركة الفتوحات الإسلاميّة في صدر الإسلام لم يحصل قبل الربط المشار إليه بين قطبَي محور مكّة-القدس، أي قبل اليرموك. وتخلّي المسلمين عن حركة الفتوح انعكس سلبًا على تماسك المحور المذكور، فسقطت القدس بيد الصليبيّين، وكان استرجاعها بمثابة إيذان باستئناف الفتوحات من جديد، وقد حصل ذلك حتّى طرق المسلمون أبواب فيينا. وعندما خَبَت حركة الفتوحات عادت القدس لتُهدَّد من جديد على يد نابليون ثمّ الحلفاء بعد ذلك بأقلّ من قرنٍ ونصف.

لقد أدرك الإمام الخميني (ره) أهمّيّة محور مكّة-القدس، وعمل على بعث الروح فيه لتحريكه، وليستعيد حضوره وتأثيره في نفوس المسلمين قبل ترجمة حركة المحور ميدانيًا، ولهذا الأمر احتلت قضيّة القدس حيّزًا مهمًّا في خطابه السياسيّ الثوريّ، وجعل لها يومًا عالميًّا في أفضل شهور السنة، شهر رمضان المبارك، دون أن ينسى مكة، القطب الآخر، التي حاول أن يعيد إليها حرارة التغيير من خلال تظاهرات البراءة من المشركين، إلّا أنّ قوى الغرب وأذنابه التقطت الموجة التي كان الإمام يحرِّك على أساسها وعملوا جميعًا للتشويش عليها وتعطيلها عبر منع

الحجّ ومحاصرة إيران الإسلام.

وهذا التحريك المبكر من الإمام هو بمثابة إرهاص ينبّئ ببداية تسخين المحور الذي سيكون شغل الإمام المهديّ (عج) الشاغل في بدايات حركته التغييريّة الحاسمة.

وخلاصة التصوّر النظريّ، موضوع البحث والمعالجة، أنّ حركة الإسلام تتّجه في أوائل البعثة وفي آخر الزمن وجهتَين متعاكستَين مضمونًا، وإن كانتا متّحدتين وجهةً:

الأولى نحو القدس من مكّة، ورمزت إليها عمليّة الإسراء وتعيين القدس قبلةً أولى للمسلمين، وغايتها الالتحاق بركب مسيرة التوحيد التي كانت تعبّر عنها القدس بما تمثّل، ليكون الالتحاق أساسًا متينًا ترتكز عليه الخصوصيّة التشريعيّة الإسلاميّة التي بدأت تبرز وتتمثّل بتحوّل القِبلة في المرحلة المدنيّة.

أمّا الوجهة الثانية فهي من مكّة نحو القدس والتي سيصوّبها الإمام الحجّة (عج)، وذلك بهدف الإلحاق الحاسم لكلّ ميراث التوحيد ورموزه وأتباعه بمسيرة الخصوصيّة التشريعيّة الإسلاميّة، حيث سيعلن عيسى (ع) ذلك عمليًّا باختياره الصلاة خلف الإمام المهديّ (عج).

هذا التصويب المجرّد لحركة المسلمين ووجهتهم في عصر ظهور الإمام الحجّة (عج) يملي على الإسلاميّين جميعًا التعبّد والالتزام بمحور مكّة–القدس كخطّ تحرّر وثورة، لا بدّ من ترجمته إلى منهج تربويّ صارم للأجيال المعاصرة والقادمة حتّى لا تضلّ الوجهة والطريق.

# القدس: المدينة الوازنة في التاريخ الإسلاميّ

د. إبراهيم بيضون[1]

كانت القدس إحدى مدن ثلاث، استأثرت بالاهتمام في التاريخ الإسلاميّ إلى جانب مكّة والمدينة، إلّا أنّها تعدّت المدينتين الحجازيّتين من حيث موقعها الجغرافيّ، الذي جعلها دائمًا في قلب المتغيّرات السياسيّة - خصوصًا بعد انكفاء الحجاز الذي تكرّس (الانكفاء) منذ اغتيال الخليفة عمر - متألّقةً على حساب الأمصار، وراجحةً بثقلها البشريّ والاقتصاديّ، ممّا دفع أحدها - وهي الشام - بعد قليل من الأعوام إلى مركز الضوء في الدولة التي سرعان ما انتقلت إليها، لتبدأ مرحلةً جديدةً ومختلفةً في نهجها، وأسلوبها، ورؤيتها السياسيّة عن الدولة السابقة.

ولعلّ الشام كانت أقرب هذه الأمصار إلى القبائل العربيّة في الحجاز، متّخذةً في تجارة قريش حيّزها البارز، قبل أن تتّجه إليها الأنظار، في عهد الرسول (ص)، كهدف حيويّ في مشروع الفتوحات الذي تجلّت ملامحه في حملتَي مؤتة وتبوك، دون أن يكون منفصلًا ذلك عن اختيار القدس قبلةً للمسلمين حينًا ما بعد البعثة. وعلى الرغم من التحوّل بعد ذلك إلى الكعبة، إلّا أنّ القدس ظلّت أثيرةً لدى المسلمين، ويحفظون لها من هذا المنطلق شعورًا حميمًا ربّما لا يتساوى مع شعورهم إزاء مكّة والمدينة، ولكنّها في النتيجة تتّخذ حضورًا بارزًا في عقيدتهم وفي حياتهم الدينيّة والسياسيّة.

---

(١) أستاذ التاريخ العربيّ والإسلاميّ في الجامعة اللبنانيّة والجامعة الإسلاميّة. نال شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة غرينوبل في فرنسا، وشهادة دكتوراه دولة من جامعة القدّيس يوسف USJ في لبنان. له أكثر من ٢٠٠ مؤلّف بين كتاب ومقالة وقراءة نقديّة.

وإذا كانت المدينتان الحجازيّتان قد جذبتا اهتمام الفقهاء والمؤرّخين والجغرافيّين وغيرهم، فإنّ المدينة الشاميّة لم تكن خارج هذا الاهتمام، فكان لها نصيب وافر من «الأحاديث» عن صخرتها ومسجدها وفضائلها، فشكّلت مادّة كثير من المؤلّفات[٢] التي تمّ وضعها بتأثير من الدافع الدينيّ، وانطلاقًا من الأسباب ذاتها التي كانت حافزًا للكتابة عن مكّة أو المدينة.

**لمحة تاريخيّة**

وقد تردّدت هذه المدينة في التاريخ، حاملةً عدّة أسماء، ولكنّها تجتمع كلّها في معنًى متقارب يعبّر عن القداسة، ممّا جعل هذا الاسم – أي القدس – مرافقًا لها منذ تأسيسها في مكان يتّخذ هذه الصفة[٣]، كما عُرفت لها أسماء تشير إلى المعنى ذاته، مثل «مدينة الله»[٤]، و«مدينة الحقّ»[٥].

أمّا «أورشليم»، فيُرجَّح اشتقاقها من كلمتين: «أور» وتعني الموضع أو المدينة، و«شالم» وهو اسم إله وثنيّ في فلسطين يُعرف بـ«إله السلام»[٦]، ولكنّ حسن ظاظا، العالم بشؤون العبريّات، ينفي أن تكون «أورشليم» اسمًا عبريًّا في الأصل، إذ إنّها حملت برأيه هذا الاسم قبل دخول

(٢) رشاد الإمام، **مدينة القدس في العصر الوسيط** (تونس: الدار التونسيّة، ١٩٧٦)، الصفحة ٢١ وما بعدها.

(٣) شمس الدين أبي عبد الله محمّد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الطبعة ٢ (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦)، الصفحتان ١٦٦ و١٦٧.

(٤) **سفر المزامير**، ٤٨: ١.

(٥) **سفر زكريا**، ٨: ٣.

(٦) حسن ظاظا، **القدس: مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!** (الإسكندريّة: جامعة الإسكندريّة–كلّيّة الآداب، ١٩٧٠)، الصفحة ٩.

العبرانيّين إلى فلسطين[٧]. ولا يختلف مدلول «إيلياء» – وهو الاسم المتردّد إبّان الفتح العربيّ الإسلاميّ للمدينة – عن هذا السياق، فهو في معجم ياقوت يعني «بيت الله»[٨]، مرجّعًا الاسم وفقًا لطريقة النسّابين العرب، إلى إيلياء بن إرم بن سام بن نوح[٩].

والقدس – عدا موقعها التاريخيّ المميّز – تحتلّ موقعًا جغرافيًّا هامًّا، في منطقة شهدت صراعًا حادًّا على النفوذ منذ القدم. وقد وصفها المقدسي بأنّه «ليس في مدائن الكور أكبر منها»[١٠]، وهي تحتلّ هضبةً مشرفةً تحيط بها عدّة جبال، ولكنّ ميزتها، برغم ذلك، أنّها «لا تظهر عند الزحف عليها من البعد»[١١]، ممّا كان يعيق السيطرة عليها ويجعلها هدفًا صعبًا للطامعين بها في العهود الماضية. وقد ظلّت القدس لآماد طويلة، لا نستثني منها الحاضر، المدينة التي ترجّح التوازن في بلاد الشام لمصلحة الطرف الغالب عليها، وهي نظريّة تدعّمها التجارب العديدة التي خاضتها المدينة، ووضعتها في دائرة صراعات، لم نرَ لها مثيلًا في المدن والحواضر الأخرى. فلمَ القدس في هذا الموقع من الضوء تخطف إليها الأبصار منذ عهد اليبوسيّين (قبيلة من الكنعانيّين) الذين يبدو أنّهم أوّل من نزل فيها، وأنّها تدين في نشأتها لهم، إلى درجة أنّها حملت اسمهم في ذلك الحين، استنادًا إلى نصّ في **سفر القضاة** رواه حسن ظاظا في دراسته القيّمة عن القدس جاء فيه:

وفيما هم عند يبوس، وقد انحدر النهار جدًّا، قال الغلام لسيّده: تعالَ نميل إلى

(٧) المصدر نفسه.

(٨) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧)، الجزء ١، الصفحة ٢٩٣.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مصدر سابق، الصفحة ١٦٥.

(١١) **القدس: مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!**، مصدر سابق، الصفحة ١١.

مدينة اليبوسيّين هذه ونبيت فيها. فقال له سيّده: نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا[12].

ولعلّ هذا النصّ ما يدحض الزعم بأنّ القدس هي مدينة داوود (ع)، الذي نزل فيها في الألف الأوّل قبل الميلاد، دون أن يعني دخول العبرانيّين إليها، وطرد اليبوسيّين الذين ظلّوا وقتًا طويلًا فيها بعد ذلك، حسب المصدر نفسه[13]، وهذا ما أكّده الحنبلي في روايته بأنّ «عمارة داود وسليمان عليهما السلام لمدينة القدس، إنّما هي تجديد البناء القديم»[14]. إلّا أنّ هذا التعايش اليبوسيّ-العبرانيّ لم يستمرّ طويلًا، إذ قام داوود (ع) بحملة ضدّ اليبوسيّين دفعتهم إلى الخروج من المدينة، بعد أن ذاقوا صنوفًا من القهر والإذلال، بينما استقرّ الأمر لداوود (ع)، الذي باشر بناء المعبد الكبير، تاركًا لابنه سليمان (ع) متابعة المهمّة، على نحو باتت القدس في عهده «عظيمة البناء متّسعة العمران» حسب رواية الحنبلي[15]. ولكنّ الدولة العبرانيّة، التي بلغت ذروتها من القوّة والاستقرار على عهد سليمان (ع)، سرعان ما هبّت عليها رياح التمزّق بعد موته، مستهدفةً القدس عدّة حملات من المصريّين، والأدوميّين، والآراميّين، فضلًا على الإسرائيليّين من مملكتهم في الشمال[16]. على أنّ المحنة الكبرى الأولى التي نزلت بها جاءتها من الملك البابليّ بختنصّر، في معرض حروبه مع الفراعنة، التي بدت غير مجدية قبل هجومه على الشام، حيث «قتل بني إسرائيل حتّى أفناهم وخرّب بيت المقدس [...] وهدم البيت الذي بناه

---

(12) المصدر نفسه، الصفحتان ١٠ و١١.

(13) المصدر نفسه، الصفحة ١٠.

(14) مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، الطبعة ١ (النجف: منشورات المكتبة الحيدريّة، ١٩٦٦)، الجزء ١، الصفحة ١١٨.

(15) المصدر نفسه، الصفحة ١١٧.

(16) **القدس: مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!**، مصدر سابق، الصفحتان ٢٢ و٢٣.

سليمان»[17].

وتروي المصادر أنّ القدس ظلّت خرابًا نحوًا من سبعين عامًا، عندما أعاد بناءها الملك الفارسيّ قورش، بعد قضائه على الإمبراطوريّة البابليّة، ممهّدًا لعودة بني إسرائيل الذين أسرهم بختنصّر ونفاهم إلى العراق. فشرعوا مجدّدًا في إعادة الهيكل المدمّر، وذلك تحت قيادة عزرا الذي يسمّيه الحنبلي «العزيز»[18]، ولكن دون أن يتمتّعوا بسلطة سياسيّة واضحة في المدينة، التي كانت خاضعةً حينذاك للنفوذ الفارسيّ[19]. وتوالت بعد ذلك المتغيّرات، تعصف بالمدينة التي ظلّت حجر الرحى في الصراعات الكبرى في المنطقة الشاميّة. فقد كانت حاضرةً في مشروع الإسكندر الإمبراطوريّ بعد احتلاله فلسطين، إلّا أنّها لم تشهد عمليّات عسكريّة مع اليهود، حيث نجح أحد أحبارهم، هو شمعون بن حونيو، وهو خليفة عزرا، بفضل ما وُصف به من دهاء، أن يجنّب المدينة الحرب، ولكن دون أن تفلح هذه المحاولة مع خلفاء الإسكندر الذين تناوبوا السيطرة على المدينة. فقد استولى عليها بطليموس حاكم مصر، وحمل عددًا كبيرًا من أهلها أسرى إلى مملكته، ممّا جرّ بعد ذلك إلى تدخّل انطيوخوس السلوقيّ حاكم سورية، وشنّ هجومًا عليها بتأييد من اليهود، إلّا أنّ البطالسة تمكّنوا من استعادتها بعد سنوات قليلة. ثمّ عادت بعد وقت غير بعيد إلى سيطرة السلوقيّين، حينما زحف ملكهم عليها سنة ١٧٠ق.م. وفتك جنوده بأهلها اليهود ونهبوا المدينة[20].

وهكذا، فإنّ مشروع الدولة اليهوديّة اصطدم بمشاريع القوى الإمبراطوريّة في المنطقة، وعدم السماح بظهور سلطة سياسيّة في القدس

(١٧) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مصدر سابق، الصفحة ١٥٠.
(١٨) المصدر نفسه، الصفحة ١٥٢.
(١٩) المصدر نفسه، الصفحة ١٥٣.
(٢٠) القدس: مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!، مصدر سابق، الصفحة ٢٤.

تابعة لليهود، الأمر الذي جعل هؤلاء هدفًا للقتل والنفي، وجعل المدينة تعاني بدورها الخراب والتدمير، نتيجة محاولاتهم المتكرّرة لإقامة سلطة سياسيّة، ظلّت مرفوضةً من جانب القوى الكبرى المتعاقبة، ومن الرومان الذين أطاحوا بقايا الإمبراطوريّة المقدونيّة، حين زحف بومبي على فلسطين وارتكب مجزرةً مروّعةً في القدس، ما لبثت أن تكرّرت على يد حاكم سوريّة الرومانيّ لوقيانوس الذي «دخل الهيكل ونهبه»[٢١]، قبل أن تستعيد المدينة أنفاسها بعد مجيء يوليوس قيصر إلى فلسطين، وسماحه لليهود بحكم ذاتيّ، تولّاه هيرودس الأدومي في أعقاب نزاع شديد بين بقايا المكابين (اليهود)، منصرفًا خلالها إلى ترميم أسوار المدينة وتعزيز أبراجها، في وقت اقتصر النفوذ الرومانيّ على حامية عسكريّة في قلعة أنطونيا، الواقعة إلى الشمال الغربيّ من السور[٢٢]. ولم يُخفِ اليهود حينذاك نزعتهم التوسّعيّة التي قادتهم إلى إثارة المتاعب ضدّ الحامية الرومانيّة، ممّا أشعل الحقد من جانب جنود الأخيرة، وحفّز الإمبراطور فسبازيان إلى وضع حلّ للمشكلة اليهوديّة في فلسطين، إذ قام بتخريب القدس، وسبي اليهود، وإحراق المعبد الذي بناه هيرودس في العام السبعين للميلاد[٢٣].

وكانت آخر محاولة غير مجدية لليهود في تحقيق سلطة سياسيّة مستقلّة في القدس في ثلاثينيّات القرن الثاني، حين قام أحد زعمائهم (بركوكبا) - الذي يجد فيه حسن ظاظا نموذجًا للصهيونيّة القديمة[٢٤] - بحركة مسلّحة ضدّ الرومان، محقّقًا عليهم بعض الانتصارات، إلّا أنّ تدخّل الإمبراطور هادريان وضع حدًّا لهذه الحركة، ولم يبقَ لليهود بعدها أثر

---

(٢١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٥.
(٢٢) المصدر نفسه، الصفحة ٢٦.
(٢٣) المصدر نفسه، الصفحة ٢٧.
(٢٤) المصدر نفسه، الصفحة ٢٧.

في المدينة التي تهدّمت بدورها، بما في ذلك الهيكل، حيث أُقيم فوقه معبد لكبير الآلهة الرومان جوبيتر[٢٥]. وقد وصف ابن البطريق حال المدينة بعد خرابها في الحين بقوله:

وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهوديّ، وأن يسكن المدينة اليونانيّون، وأن تسمّى باسم الملك إيلياء. فسكنها اليونانيّون وبنوا على باب الهيكل الذي يُقال له البهاء برجًا، وصيّروا فوقه لوحًا كبيرًا، وكتبوا اسم الملك إيلياء وذلك في ثمان وستّين من ملكه[٢٦].

وقد ظلّ اليهود لا يسمح لهم بالدخول إلى المدينة، تحت طائلة الموت لمن يخالف هذا الأمر، ولكن سُمح لهم بعد وقت بدخولها مرّةً في العام، والوقوف على الجدار المتبقّي من السور الغربيّ، وهو الذي أصبح يعرف بـ«حائط المبكى».

## القدس في صدر الإسلام

وكانت ثمّة مواجهة أخرى حاسمة مع اليهود، ولكن على أرض الحجاز، خاضها الرسول (ص) والمسلمون الأوائل منذ العام الثاني للهجرة، دون أن تكون القدس – التي كانت قد تحوّلت قبلة المسلمين عنها في ذلك الوقت – بعيدةً عن هذا الصراع أو خارج نطاق الاهتمام، الذي تجلّت بواكيره في عدّة مؤشّرات سياسيّة، وعسكريّة، واقتصاديّة، كانت جميعها تصبّ في مشروع الفتوحات، الهادف إلى السيطرة على الشام منذ السنوات الأولى للهجرة. ولذلك ما كادت تنتهي المعركة الأساسيّة

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) راجع كتاب تاريخ ابن البطريق.

باندحار الجيوش البيزنطيّة واستسلام المدن الرئيسة، حتّى اتّجهت الأنظار نحو القدس (إيلياء) التي كانت في حامية قويّة، وباتت أكثر تحصينًا بعد استعادة هرقل لها، شأن بقيّة المواقع الشاميّة التي خضعت حينذاك لإعادة ترتيب في أوضاعها الإداريّة، بجعلها أكثر ارتباطًا بالسلطة المركزيّة، فضلًا عن أوضاعها العسكريّة، بتعزيز حامياتها وتحصينها، على نحو يحول دون تكرار التجربة الفارسيّة التي هزّت أركان النظام البيزنطيّ ووضعته برغم إصلاحات هرقل على مفترق تجربة أشدّ قسوةً وأكثر خطورةً.

وفي ضوء ذلك، يصطدم العرب المسلمون بمقاومة في القدس، حالت دون حسم أمرها بالسرعة التي حُسم فيها أمر المدن الشاميّة الأخرى. وإذ يطول الحصار، ويتفادى المسلمون اختراقها بالقوّة – هؤلاء الذين يدركون أهمّيّتها الدينيّة – فيكبحون في نفوسهم شهوة القتال، تاركين للخليفة عمر بن الخطّاب اتّخاذ القرار بشأنها[٢٧]، في ضوء التطوّرات التي كان لأهل القدس دور في النتائج المترتّبة عليها. فقد سار أبو عبيدة بن الجرّاح – وفقًا للرواية التاريخيّة – نحو القدس، متّخذًا معسكره في الأردن، حيث انطلقت الرسل إلى إيلياء، حاملةً الخيارات الثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب[٢٨]. ولكنّ أهل القدس، الذين لم يفقدوا الأمل على ما يبدو بالدولة البيزنطيّة وقدرتها على استعادة الشام، لا سيّما وأنّ الجهة الجنوبيّة كانت ما تزال خاضعةً بصورة ما لنفوذها، كان في نيّتهم المقاومة والتصدّي للمسلمين، وتجلّت هذه المحاولة في معركة قصيرة[٢٩]، سرعان ما انتهت بهزيمتهم وانكفائهم على أعقابهم بعد

(٢٧) أحمد بن يحيى بن جابر (البلاذري)، **فتوح البلدان**، الطبعة ١ (القاهرة: مطبعة الموسوعات، ١٩٠١)، الصفحة ١٤٤.

(٢٨) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٢٤٦.

(٢٩) المصدر نفسه، الصفحة ٢٤٨.

اشتداد الضغط عليهم من جانب خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان[٣٠]. وكانت هذه المعركة كافيةً لحامية القدس، كي تدرك عقم المحاولة في الدفاع عن المدينة، بما في ذلك الرغبة في تحييدها بناءً على موقعها الدينيّ الخاصّ. فقد كان بقاء القدس خارج السيادة المباشرة للمسلمين يعني من منظور الجغرافيّة السياسيّة أنّ ثغرةً كبيرةً تشوب هذه السيادة، ويعني، بالتالي، استمرار ملفّ الحرب مفتوحًا مع الدولة البيزنطيّة التي ما تزال حاضرةً في مصر وبعض الشمال الإفريقيّ. كما يتعارض وهذه السيادة منح القدس وضعًا خاصًّا، يتمتّع من خلاله طرف ما بحرّيّة الحركة، أو يشكّل نوعًا من السلطة المحلّيّة، الأمر الذي ربّما دار في خلد القائمين عليها، بعد أن أصبحت شبه ساقطة في أعقاب معركة اليرموك.

ولقد كان واضحًا أنّ قيادة المسلمين، برغم إحكام الحصار على المدينة، تفادت اجتياحها بالقوّة، مؤثرةً الفتح السلميّ لها، على غرار ما جرى في مكّة في العام الهجريّ الثامن. وإذا كانت المفاوضات قد تمّت مع الحاضرة القرشيّة بصورة سرّيّة، متجنّبًا الرسول (ص) أيّ عمل عسكريّ يؤدّي إلى انتهاك حرمتها التي تكرّست في الإسلام، فإنّ المفاوضات التي جرت مع أقطاب القدس (إيلياء) كانت علنيّةً ومحصّنةً بالعهود والمواثيق، منعًا لأيّ خلل في الاتّفاق الذي تقرّر أن يكون الخليفة موقّعًا عليه بصورة مباشرة. ذلك أنّ أهل إيلياء – كما جاء في الرواية التاريخيّة – لمّا أدركوا أنّ أبا عبيدة (القائد العامّ للمسلمين في الشام) «غير مقلع عنهم ولم يجدوا لهم طاقة بحربه، قالوا نصالحك.. فأرسل إلى خليفتكم فيكون هو الذي يعطينا هذا العهد ويكتب لنا الأمان»[٣١]. ولكنّ أحد قادة الشام المقرّبين من أبي عبيدة، وهو معاذ بن جبل الذي كان حينذاك على جند الأردن، أشار على قائده بأن يستوثق أوّلًا من

(٣٠) المصدر نفسه

(٣١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٤٩.

أهل إيلياء، ثمّ يكتب بهذا الأمر للخليفة[٣٢]، الذي جاء إلى الشام ربّما في مهمّة تجاوزت استلام القدس، حيث تمّ الاتفاق على ذلك بين رؤسائها وأبي عبيدة، إلى الوقوف على أوضاع الجبهة الشاميّة بصورة عامّة، ومواكبة عمليّات الفتوح، لا سيّما وأنّ إحدى الروايات تتحدّث عن اتّخاذ الخليفة مقرّه أوّلًا في معسكر الجابية، حيث انعقد الصلح على الأرجح مع أهل إيلياء بإعطائهم

> أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ولصلبانهم، ومقيمها وبريّها وسائر ملّتها، أنّها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها [...] ولا يضارّ أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعلى أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله[٣٣].

وسواء تمّ الاتّفاق في الجابية أو في القدس نفسها، فإنّه يعبّر عن منهجيّة واضحة في الإسلام الدينيّ والسياسيّ، تتجلّى – عدا أهمّيّة المدينة ومكانتها لدى المسلمين – في العلاقة الاحتوائيّة مع النصارى، تلك التي بدت ملامحها في سياسة الرسول (ص) إزاء القبائل العربيّة المتنصّرة في الشام ومحاولته المبكرة «استعادتهم» من السيطرة البيزنطيّة. كما تتجلّى في الموقف الثابت من اليهود الذي يُعتبر استمرارًا لموقف الرسول (ص)، ذلك الذي تابعه الخليفة عمر بالشدّة نفسها، عندما استثنى يهود القدس من الأمان، والذي لم يسرِ أيضًا على البقيّة من يهود الحجاز. وقد شمل هذا الاتّفاق سكّان المدينة أو «أهل الأرض»[٣٤] عدا اثني عشر ألفًا من

(٣٢) المصدر نفسه

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٣٤) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، جمع تحقيق محمود إبراهيم، الطبعة ١ (الأردن: المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم – معهد المخطوطات العربيّة، ١٩٨٥)، مخطوطة «فضائل بيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام» للمشرف بن المرجى بن إبراهيم

الروم، قضى بإخراجهم بعد انقضاء المدّة[٣٥]، ممّا يعني أنّ هؤلاء، كما اليهود، اعتُبروا خارج الأمان الذي مُنح لسكّانها النصارى مقابل جزية متفاوتة بين خمسة وثلاثة دنانير، تبعًا لوضع الفرد و«قوّته»[٣٦]. هذا وقد مكث عمر أيّامًا في القدس اختطّ خلالها مسجدًا بجانب الصخرة، وصلّى في ذلك المكان الذي عُرف في السياق القرآنيّ باسم المسجد الأقصى[٣٧].

### القدس في العهد الأمويّ

وهكذا يأتي استسلام القدس تتويجًا لمعركة اليرموك واندحار الجيوش البيزنطيّة من الشام، حيث خرجت آخر فلولهم من المدينة في أعقاب الاتّفاق الذي تمّ بين الخليفة و«بطارقة» المدينة على نحو ما سبقت الإشارة. وقد ظلّت القدس محتفظةً بمكانتها السامية خلال العهود الإسلاميّة المتتابعة، مشكّلةً نقطة توازن هامّة على الصعيدين الدينيّ والسياسيّ، خصوصًا بالنسبة للقوى المسيطرة في بلاد الشام. ومن هذا المنظور تأتي بيعة معاوية التي أعلنها في القدس بعد حسم الصراع على السلطة لمصلحته، تكريسًا لهذه المكانة التي اتّخذتها المدينة في الإسلام. ولعلّ الموقف غير الودّيّ الذي اتّخذه الحجاز من الدولة الأمويّة كان وراء اهتمام خلفائها بالقدس، ربّما تسويقًا لإقامتهم في الشام إزاء المعارضة الحجازيّة أو فريق منها، كان ما يزال يربط بين الشرعيّة والمقرّ الأوّل للخلافة. وقد بلغ هذا الاهتمام في رواية ابن البطريق حدًّا دفع عبد الملك

---

المقدسي، الصفحة ٢١٥.

(٣٥) المصدر نفسه، الصفحة ٢١٦.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) سورة الإسراء، الآية ١.

إلى محاولة الاستغناء عن الحجاز وتمويل الحجّ إلى القدس، مفسّرًا ذلك ببناء الخليفة المروانيّ مسجد قبّة الصخرة[٣٨]. وإذا كان ما توخّيناه هو إبراز الاهتمام الأمويّ بهذه المدينة وتوظيف صفتها الدينيّة في تكريس شرعيّة الدولة التي أعلن معاوية تأسيسها من القدس، فإنّ ما أورده ابن البطريق عن مسألة الحجّ أمر لا يستحقّ التوقّف عنده، لاسيّما وأنّه متعلّق بإحدى الثوابت الأساسيّة في الإسلام، فضلًا عن الاستبعاد المطلق لهذه الفكرة من جانب خليفة (عبد الملك) كان من فقهاء «المدينة» قبل تولّيه السلطة[٣٩]، وصعوبة تسويقها لدى المسلمين في ذلك الوقت الذي تؤكّد فيه المصادر بأنّ أهل الشام كانوا يمارسون شعائر الحجّ في ظلّ لواء لبني أميّة[٤٠] خلال الفترة نفسها.

وثمّة ما يستوقفنا في هذا العهد، عودة ظهور اليهود في القدس، ولكن بصورة طفيفة، وذلك لأوّل مرّة منذ دخولها في سيطرة العرب المسلمين، حين استخدم عبد الملك عشرةً منهم «لكنس المظاهر التي حول الجامع»[٤١] حسب روايةِ الحنبلي. إلّا أنّ ذلك لم يؤدّ - ولوقت بعيد - في تعديل الخارطة السكّانيّة للقدس التي ظلّ الحضور اليهوديّ فيها سطحيًّا، إن لم يكن معدومًا في العهد الأمويّ، إذا ما توقّفنا عند قرار الخليفة عمر بن عبد العزيز بإخراج اليهود القائمين على خدمة المسجد الأقصى منذ عهد عبد الملك[٤٢]. ولا شكّ أنّ الهوّة التي كانت عميقةً بين البيت الأمويّ وبين الحجاز، فضلًا عن الهوّة الأكثر عمقًا التي باعدت بين الشام والعراق، قد جعلت الخلفاء يؤثرون الشام ويحيطونها بالرعاية

---

(٣٨) سعيد بن البطريق، **تاريخ ابن البطريق**، الجزء ٢، الصفحة ٣٩.

(٣٩) محمّد بن علي بن طباطبا (ابن الطقطقا)، **الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة** (بيروت: دار صادر)، الصفحة ١٢٢.

(٤٠) محمّد ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الجزء ٥، الصفحة ٧٥.

(٤١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مصدر سابق، الصفحة ٢٨١.

(٤٢) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨٢.

حيث الولاء والانضباط، والحصن المنيع الذي دفع الأخطار عنهم. وقد هيّأ ذلك للقدس بأن تأخذ نصيبها من العناية، فسطعت إلى جانب دمشق وكادت تنافسها أحيانًا، ليس فقط في العمائر الدينيّة، ولكن كمكان أثير لبعض الخلفاء المروانيّين لاتّخاذ القرارات الهامّة تماهيًا مع التقليد الذي كانت تحظى به مكة قبل الإسلام وبعده. فقد روى الحنبلي أنّ سليمان بن عبد الملك بعد تولّيه الخلافة أتى بيت المقدس، «وأتته الوفود بالبيعة»[٤٣]، عازمًا كما يبدو على اتّخاذها مقرًّا له، بينما ترك أخاه نائبًا عنه في دمشق[٤٤]. ولعلّ هذا القرار كان منطويًا على خلفيّة دينيّة، دفعت سليمان إلى إيثار القدس على العاصمة الأمويّة، لما كان يُعرف عنه من «تعظيم للعلماء» الذين آثروها بغالبيّتهم على الأخيرة، فضلًا عن علاقته المعروفة بواحد من هؤلاء وهو الفقيه رجاء بن حيويّة الذي كان من أبرز مستشاريه، وكان قد شارك في بناء مسجدَي الصخرة والأقصى[٤٥]. كما كان منطويًا – أي القرار – على خلفيّة سياسيّة، نأت بسليمان حينًا عن دمشق التي كانت أكثر ولاءً لأخيه الخليفة السابق، ممّا جعله يعزف عنها، ويشنّ حملةً قاسيةً على معارضيه من رجالات سلفه.

لم يقدَّر للقدس في العهد الأمويّ انتزاع موقع دمشق التي ظلّت، في تكوينها السكانيّ والاجتماعيّ، أكثر ملاءمةً لخلفاء بني أميّة، بمن فيهم سليمان، واجدين فيها الدعم المثالي لنفوذهم واستمرار «ملكهم» في منجًى من المتغيّرات السياسيّة. ولهذا تنكفئ القدس قليلًا وراء الأحداث العاصفة التي حفل بها الربع الأخير من حياة الدولة الأمويّة، وجعلتها في موقع الدفاع عن النفس إزاء الحركات الانفصاليّة في مشرقها والمغرب،

---

(٤٣) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨١.

(٤٤) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨٢؛ القدس: مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!، مصدر سابق، الصفحة ٣١.

(٤٥) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مصدر سابق، الصفحة ٢٨١.

حتّى كانت الضربة القاضية التي جاءتها من الشام نفسها، بعد الانقلاب في موقع حلفائها التقليديّين من القبائل اليمنيّة، فضلًا عن الضربات الأخرى التي استنزفتها في خراسان، حيث تحرّكت القوّات المؤيّدة لبني العبّاس ممهّدةً لظهور خلافتهم على أنقاض الدولة المتهاوية. وكان من الطبيعيّ أن يتدخّل عامل الجغرافيا السياسيّة مرّةً أخرى في العهد الجديد، ولكن دون أن تكون القدس في الضوء المقارب الذي كانته في العهد السابق، إذ جاء تنحّي العاصمة العبّاسيّة نحو الشرق على حساب الشام بأكملها التي عاشت في الظلّ لفترة غير قصيرة، على الرغم من مبادرة المنصور وابنه المهديّ إلى زيارة القدس لأسباب دينيّة أكثر منها سياسيّة(٤٦)، ومحاولة المتوكّل الإقامة في دمشق، بعد اشتداد ضغط القوى العسكريّة عليه.

### القدس في العهد العبّاسيّ

ولكنّ الشام، وإن طال انزواؤها، أثبتت أنّها أكثر وسطيّةً من بغداد، وبالتالي ملائمة لأن تكون مقرّ الدولة التي سرعان ما جنح غربها عن السلطة المركزيّة نتيجة التحوّل الشرقيّ في الأخيرة. ولذلك تصبح مرّةً أخرى في قلب الأحداث، وفي صميم اهتمامات الدولة الفاطميّة التي انشقّت سياسيًّا وفكريًّا عن الدولة العباسيّة. فقد ظهر الفاطميّون في المغرب، إلّا أنّهم اعتبروا أنفسهم الخلفاء الشرعيّين للدولة الإسلاميّة، ممّا حدا بهم إلى التوسّع شرقًا، وجعل الشام هدفًا رئيسًا لهم، متزامنًا ذلك مع تهديد بيزنطيّ للأخيرة وخطّة للاستيلاء على القدس. وقد تجسّد

---

(٤٦) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨٣؛ **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، مصدر سابق، مخطوطة «كتاب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام» لشهاب الدين أحمد بن محمّد المقدسي الشافعي، الصفحة ٣٩٦.

المشروع الفاطميّ في هذا السبيل مع الخليفة المعزّ لدين الله الذي حقّق بغيته في السيطرة على الشام، مفتتحًا بذلك جرحًا لم يلتئم في جسد الدولة العباسيّة بعد أن تقلّص نفوذها في هذه الولاية لمصلحة قوًى مستقلّة أو شبه مستقلّة، واجهت الفاطميّين في حروب طاحنة. ظلّت القدس حتّى الغزو الصليبيّ خارجةً على السيادة العبّاسيّة، بعد أن أحكم الفاطميّون قبضتهم في جنوبيّ الشام. وفي عهد المعزّ طرأ تعديل على الوضع السكانيّ في المدينة لمصلحة الفئات غير الإسلاميّة، عندما سمح لليهود بالإقامة فيها، حيث عاشوا فترة ازدهار خلافًا لعهد حفيده الحاكم بأمر الله الذي قامت سياسته على اضطهاد الأقلّيّات، وخصوصًا المتجلّية في قرار تخريب كنيسة القيامة وإباحة ما فيها من «أموال وأمتعة وغير ذلك»[٤٧] للعامّ. ولكنّ هذا «التخريب» كان جزئيًّا على الأرجح، إذ قام خليفته (المستنصر) بإصلاح الكنيسة في أعقاب مهادنة مع الإمبراطور البيزنطيّ[٤٨]. ولعلّ هذا التحوّل في سياسة الفاطميّين كان خاضعًا للمتغيّرات التي هزّت نفوذهم في الشام، بعد المحنة التي خلّفها غياب الحاكم بأمر الله، وما رافقها من تصاعد الخطر البيزنطيّ واشتداد ضغط القوى التركيّة الموالية للعبّاسيّين في هذه الولاية. وقد ذكر الحنبلي، في هذا السياق، أنّ القدس خرجت من يد الفاطميّين في سنة خمس وستّين وأربعمائة و«أقيمت الدعوة العبّاسيّة» فيها، ولكنّ هؤلاء استعادوها بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي، بعد نحو عشرين عامًا[٤٩].

---

(٤٧) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٣٠٣.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) المصدر نفسه، الصفحة ٣٠٥.

وقد نتج عن هذا الصراع على القدس حالة من الضعف الشديد في الجبهة الإسلاميّة، ممّا شجّع القوى الأوروبيّة (الفرنج) على تلقّف الفرصة النادرة وتحقيق الحلم بالوصول إلى القدس. فقد كانت ثمّة دوافع ذاتيّة لهذه القوى، أسهمت في تهيئة الأجواء للحركة الصليبيّة، ولكنّ واقع الشام والتجاذب الحادّ على النفوذ فيها من جانب الأطراف الإسلاميّة، كان الدافع الأساسيّ لإخراج هذه الحركة إلى حيّز التنفيذ. ومن هنا جاء تقدّم الصليبيّين نحو الشام في سنة اثنين وتسعين وأربعمائة، من دون أن يعترضهم عائق، سوى مواجهات محدودة دفعت المسلمين إلى التراجع، والانكفاء شرقًا وجنوبًا، بينما المدن الساحليّة أصبحت شبه ساقطة منذ استسلام أنطاكية. ولم يشأ هؤلاء إضاعة الوقت في حصارها، وإنّما آثروا التوجّه مباشرةً نحو القدس التي ثبت أنّها لم تكن هدفًا صعبًا أمام القوّة الكبيرة التي حشدت لها وتمكّنت من اجتياحها بعد نيّف وأربعين يومًا من الحصار[٥٠]. وقد ارتكب الصليبيّون مجزرةً مروّعةً في المدينة، حيث «قتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس منهم جماعة كثيرة من أئمّة المسلمين وساداتهم وعبّادهم وزهّادهم، وغنموا ما لا يقع عليه الحصر» حسب الروايات التاريخيّة[٥١].

ولقد حاول الفاطميّون التصدّي للزحف الصليبيّ، ولكنّ أمير جيوشهم الأفضل واجه هزيمةً قاسيةً في عسقلان[٥٢]، بينما حاولت

(٥٠) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، مصدر سابق، مخطوطة «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» لنصر الدين محمّد بن محمّد العلمي الحنفي، الصفحة ٥٠١.

(٥١) المصدر نفسه، الصفحة ٥٠٢؛ **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٣٠٧.

(٥٢) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، مصدر سابق، مخطوطة «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» لنصر الدين محمّد بن محمّد العلمي الحنفي، الصفحة ٥٠٢

فلول المسلمين التي قدّر لها النجاة من مذبحة القدس استنهاض أمراء الشام، وبعضها تابع السير إلى العراق مستغيثًا بالخليفة العبّاسيّ المستظهر بالله الذي اكتفى بدعوة الفقهاء إلى الخروج لتحريض الملوك السلاجقة في الشام، الذين حالت خلافاتهم في المقابل دون اتّخاذ موقف ما إزاء المحنة العظيمة التي نزلت بالمسلمين(٥٣). ولعلّ في وصف الحنبلي لما جرى حينذاك في القدس ما يعبّر عن حجم المأساة التي غمرت البلدان الإسلاميّة، إذ قال: «لم يُرَ في الإسلام مصيبة أعظم من ذلك، وعجز ملوك الإسلام عن انتزاعه [أي بيت المقدس] منهم»(٥٤).

## استرجاع القدس وهزيمة الصليبيّين

وهكذا جاء سقوط القدس بيد الصليبيّين ليكرّس معادلةً جديدةً في ديار الإسلام، وخصوصًا بلاد الشام، وهي خطّ المواجهة مع القوى المعادية، سواء تمثّلت بالبيزنطيّين من قبل، أم بالصليبيّين بعد ذلك. وقد أدرك المسلمون، ولكن بعد فوات الأوان، حجم الخسارة التي وقعت بهم، والتي كانت محصّلةً طبيعيّةً لانقساماتهم الحادّة، وعجز الخلافة العبّاسيّة عن القيام بدور توحيديّ وتعبويّ للجبهة الإسلاميّة. كما أدركوا أنّ خسارة القدس لا يعوّضها غير استعادة المدينة التي تشكّل نقطة التوازن والسيطرة على المنطقة التي باتت بأكملها مهدّدةً، ممّا سيجعل – ربّما بعد حين وبعد هدوء الأنفس وتبيان الحقيقة الصعبة – الحركة السياسيّة في الشام متأثّرةً بهذه التغيّرات، ومندرجةً تحت شعار استعادة المدينة.

---

(٥٣) المصدر نفسه؛ **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٣٠٨.

(٥٤) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، مصدر سابق، مخطوطة «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» لنصر الدين محمّد بن محمّد العلمي الحنفي، الصفحة ٥٠٣

ولعلّ أوّل مبادرة توحيديّة للردّ على التحدّيات الجديدة لم تكن من جانب الخلافة العبّاسيّةِ العاجزة عن اتّخاذ موقف سياسيّ، وإنّما كانت من جانب الزنكيّين حكّام الموصل، حيث قام صاحبها عماد الدين بدورٍ رياديٍّ في إرساء مشروع الجبهة الإسلاميّة الموحّدة، وذلك بعد نحوَ نصف قرن من سقوط القدس. ولكنّ عماد الدين لم يطل به العمر[٥٥] ليرى نتائج مشروعه، وإن كان ما أنجزه على هذا الصعيد يعتبر أساسًا هامًّا، لما قام به ابنه نور الدين، خليفته وحامل رسالته، ومن ثمّ واضع مشروعه على طريق التنفيذ.

ولكنّ المشيئة الإلهيّة حالت أيضًا بين نور الدين وبين نتاج جهوده التي قدّر أن يقطفها أحد قوّاده (صلاح الدين الأيّوبي). فقد أدرك نور الدين، بذكائه وبُعد نظره، أنّ السبيل إلى القضاء على الصليبيّين يكمن ليس في توحيد جبهة الشام فقط، ولكن في توسيع دائرة الجبهة بضمّ مصر إليها، في وقت بدت فيه شمس الفاطميّين بالأفول بعد إخفاقهم في استعادة القدس، ممّا كان له تأثير حتميّ على دعوتهم القائمة أساسًا على الجهاد، وهدّد دولتهم نتيجةً لذلك بالزوال السريع. وفي ظلّ هذا الواقع، كان نور الدين محكومًا بهاجس الزمن، خشية ضياع الفرصة لمصلحة الصليبيّين، الذين كانوا يرمقون مصر أيضًا ويتأهّبون لحصار القاهرة[٥٦]. وكان العاضد آخر خلفاء الفاطميّين قد بعث إلى نور الدين «يستغيث به»[٥٧]، بعد أن أوشكت الجيوش الصليبيّة على اجتياح عاصمته، لولا مصالحة وزيره شاور لهم وحملهم على الانسحاب[٥٨]. وفي تلك الأثناء، كان جيش الشام يشقّ طريقه إلى مصر بقيادة شيركوه ومعه عدد

(٥٥) قُتلَ غيلةً سنة ٥٤١.

(٥٦) سَنة ٥٦٤هـ؛ **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٣١١.

(٥٧) المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه.

من القادة بينهم صلاح الدين الذي أثبت منذ البداية مقدرةً فائقةً في استغلال الفرص، حين دبّر لوزير الفاطميّين مكيدةً أطاحت به من دون علم عمّه شيركوه، ممّا أزاح منافسًا أساسيًّا من طريق الأخير الذي سمّاه العاضد وزيرًا له(٥٩). وإذا أضفنا إلى الدهاء الذي تمتّع به صلاح الدين، ما وفّر له الحظّ من فرص ثمينة ندر أن توفّرت لقائد في التاريخ، يصبح من السهل علينا تفسير البروز السريع لهذا القائد والدور الخطير الذي تهيّأ له، كواحد من ألمع القادة المسلمين في زمانه. فقد توفّي عمّه في السنة نفسها التي دخل فيها مع صلاح الدين إلى مصر، وبعد شهرين فقط من تولّيه الوزارة التي انتقلت إليه، ومن ثمّ توفي العاضد بعد سنوات ثلاث (٥٦٧هـ)، ليخلو له الجوّ في هذه البلاد، ويزيل منها بقايا النفوذ الفاطميّ. وما لبث أن لحق به نور الدين بعد سنتين، تاركًا لصلاح الدين، وعلى كره منه، اتّخاذ مكانه، وفي عهدته المشروع الزنكيّ بإخراج الصليبيّين من القدس.

وكان صلاح الدين قد بدأ حربه على الصليبيّين بعد استتباب الأمر له في مصر، غازيًا بعض مواقعهم بالقرب من عسقلان والرملة، ومعاودًا ذلك في حملة على «أيلة» أسفرت عن فتحها واستباحة أهلها وما فيها(٦٠). وبعد أن ضمّ إليه الشام واستقرّ فيها سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، قام بعمليّة كرّست زعامته «الإسلاميّة»، حين تصدّى لمحاولة صليبيّة كانت تستهدف مدينة الرسول (ص)، خطّط لها صاحب الكرم فيما ترويه المصادر(٦١). فعقد عهدًا إلى نائبه على مصر سيف الدولة بن منقذ بأن يتولّى أمر الحملة الصليبيّة على الحجاز، منتدبًا أحد قوّاده، حسام الدين لؤلؤ، الذي أدركها وهي على مسافة يوم من المدينة، فاستسلمت له

---

(٥٩) المصدر نفسه، الصفحة ٣١٢.

(٦٠) المصدر نفسه، الصفحة ٣١٣.

(٦١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مصدر سابق، الصفحة ٣١٦.

وحمل عناصرها إلى القاهرة[٦٢].

ولعلّ هذه الحملة - إن صحّ وقوعها - لم تكن، في تكوينها وتجهيزها، سوى حملة صغيرة دفعت إليها حماسة حفنة من صليبيّي الكرك، ممّن بلغ بهم التطرّف إلى تحدّي المسلمين بالدخول إلى مدينة الرسول (ص) وانتهاكها. فثمّة ما يجعل المؤرّخ يشكّ بأمر هذه الحملة أو جدّيّتها على الأقلّ، وهو الاختلاف في بعض سياقها بين روايتَي ابن الأثير والحنبلي، فضلاً عن المبالغة في رواية الأخير، بأنّ «حسام الدين لؤلؤ صعد إلى الصليبيّين وكانوا نيفًا وثلاثمائة عند رأس جبل صعب المرتقى في نحو عشرة أنفس وضايقهم فيه، فخارت قواهم بعدما كانوا معدودين من الشجعان»[٦٣]. فمن المرجّح أنّ صاحب الكرك، وكان حصنه يتحكم بطريق الحجّ، أخذ يضايق المسلمين أو يعترض طريقهم إلى الديار المقدّسة[٦٤]، الأمر الذي أحدث استنكارًا ربّما كانت المبالغة واضحةً فيه لبثّ الحماسة واستثارة النفوس ضدّ الصليبيّين. ولعلّ غزو السلطان للكرك في العام (٥٨٠هـ) غير منفصل عن هذه المسألة، عدا أنّه شكّل من منظور عسكريّ خطوةً تمهيديّةً لحصار القدس، لما كانت تمثّله الكرك من أهمّيّة في هذا المجال.

وعلى مدى سنوات ثلاث لم تهدأ غزوات السلطان، متنقّلةً ما بين الساحل وبعض المواقع الداخليّة، ومخلّفةً ضربات موجّهةً في صفوف الصليبيّين[٦٥]، حتّى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، عندما قرّر في شهر محرّم الهجوم على القدس في ظلّ دعوةٍ عامّة إلى الجهاد. وما لبث أن تحرّك بقوّاته الشاميّة إلى بصرى، متّخذًا معسكره فيها بانتظار وصول

(٦٢) المصدر نفسه،مصدر سابق، الصفحة ٣١٧.
(٦٣) المصدر نفسه، الصفحة ٣١٧.
(٦٤) المصدر نفسه، الصفحة٣٠٩.
(٦٥) المصدر نفسه، الصفحتان ٣٠٧ و٣٠٨

الحملة المصريّة. ولم يشأ إضاعة الوقت، إذ قام بغزوة هامشيّة إلى الكرك والشوبك، فأحرق فيهما، ونهب وأسر، إلى أن وصل «عسكر مصر»، وسار بالجميع إلى طبريّة، حيث كان الصليبيّون قد تنبّهوا للخطر وأخذوا في حشد قوّاتهم عند صفوريّة التي شهدت معركةً بين الطرفَين، كان النصر فيها للمسلمين[٦٦].

كانت المعركة الحاسمة في حطّين، عندما فوجئ الصليبيّون بخطّة محكمة أربكت قوّاتهم وأثارت فيهم الذعر، دون أن يجدوا مفرًّا من الهزيمة التي أوقعت بهم ثلاثين ألفًا من القتلى فيما يرويه الحنبلي[٦٧]، هذا عدا الأسرى الذين كان بينهم الملك وأخوه صاحبا جبيل والكرك، ما لبث أن عفا عنهم باستثناء الأخير الذي قتله بيده «لإساءته وخيانته»[٦٨].

وكانت الخطّة التالية، بعد حطّين، هي عزل القدس التي كانت ما تزال قويّةً في تحصيناتها والحشود المدافعة عنها، إذ لجأ السلطان إلى احتلال المدن والمواقع الصليبيّة الهامّة، لا سيّما الساحليّة منها والحؤول دون وصول الإمداد إليها من الخارج. وبعد ذلك تحرّك على رأس قوّاته من عسقلان محاصرًا القدس من جهة الغرب في منتصف رجب من السنة نفسها، وكان فيها نحو ستّين ألف مقاتل[٦٩] تهيّأوا للدفاع عن المدينة. ولكنّ اشتداد الضغط عليها وتدمير غالبيّة السور بالمنجنيق جعلا المقاومة عقيمةً وأدّيا بالتالي إلى طلب الأمان بعد خمسة أيّام من القتال. ولم يكن في نيّة السلطان أن يستجيب للصلح، إذ كان يهدف إلى أخذها بالسيف

(٦٦) المصدر نفسه، الصفحتان ٣١٩ و٣٢٠.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

(٦٨) المصدر نفسه؛ انظر، أمين معلوف، **الحروب الصليبيّة كما رآها العرب**، ترجمة عفيف دمشقيّة، الطبعة ١ (بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٩)، الصفحة ٢٤٣.

(٦٩) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، مصدر سابق، مخطوطة «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» لنصر الدين محمّد بن محمّد العلمي الحنفي، الصفحة ٥٠٤؛ **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٣١٨.

على غرار ما فعله الصليبيّون من قبل، فاستجاب لرأي قوّاده الذين أجمع رأيهم على الصلح شريطة «أن يؤدّي كلّ من بها من الرجال عشرة دنانير، ومن النساء خمسة، ويُؤَدَّى عن الطفل ديناران، وأنّ من عجز عن الأداء كان أسيرًا»[٧٠]. ففعلوا ذلك واستسلمت المدينة في السابع والعشرين من رجب، بينما انصرف السلطان إلى تجديد المسجد الأقصى، وإعادة أماكن العبادة إلى ما كانت عليه، وإزالة ما لحق بها من طمس أو تشويه[٧١]، فضلًا عن استقدام المنبر من حلب، وهو الذي كان نور الدين قد أعدّه للمسجد الأقصى خلال إعداده لفتح المدينة[٧٢].

### الحملة الصليبيّة الثالثة

وكان من الطبيعيّ أن يكون لفتح القدس تأثير عميق على الجبهة الإسلاميّة وجبهة الغرب الأوروبيّ، حيث كان له صداه الإيجابيّ على الأولى، فاستكانت خلافاتها حينًا قصيرًا، بينما كان له وقع شديد السلبيّة في الثانية التي سارعت إلى إحياء الحملات الصليبيّة، متجاوزةً خلافاتها الحادّة، عبر تشكيل حملة مختلفة عن الحملتَين السابقتَين، في انضمام الملوك الثلاثة الكبار الذين يحكمون غرب أوروبا[٧٣]، أي أنّها لم تقتصر على التعبئة التطوّعيّة وانتداب الأمراء والفرسان الباحثين عن دور ما، إنّما كانت المشاركة على المستوى الزمنيّ، دون أن يكون للبابويّة تأثير مباشر

(٧٠) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، مصدر سابق، مخطوطة «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» لنصر الدين محمّد بن محمّد العلمي الحنفي، الصفحة ٥٠٥؛ **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٣٢٨.

(٧١) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربيّة قديمة**، مصدر سابق، مخطوطة «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» لنصر الدين محمّد بن محمّد العلمي الحنفي، الصفحة ٥٠٨.

(٧٢) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مصدر سابق، الصفحة ٣٤١.

(٧٣) ملوك فرنسا وألمانيا وإنجلترا؛ إرنست باركر، **الحروب الصليبيّة**، ترجمة السيّد الباز البعريني، الطبعة ٢ (بيروت: دار النهضة العربيّة)، الصفحة ٨٧.

في إعدادها وتشكيلها[٧٤]. وقد كان فتح القدس قد أسهم في توحيد هؤلاء الملوك، مستثيرًا فيهم قضيّةً أوروبيّةً مشتركةً، إلّا أنّ هذا الموقف كان منطويًا على تناقضات، لم يكن من السهولة إخفاؤها أو التغلّب عليها. وقد لاحت هذه المواقف المتباينة في اتّخاذ كلّ منهم سبيله الخاصّ إلى القدس، ومحاولًا تحقيق انتصارات منفردة، ليس الغرض منها سوى «إرضاء غريزة الفارس المغامر» كما يقول باركر في تقويمه لاستيلاء ملك إنجلترا على قبرص[٧٥].

وهكذا فإنّ الحملة الثالثة التي سارت نحو القدس، في ظلّ شعور يخامر قادتها بسهولة المهمّة وسرعة العودة إلى أوروبا، ما لبثت أن اصطدمت بجبهة قويّة لدى المسلمين وارتفاع في روحهم المعنويّة، في أعقاب الانتصارات التي بدأت مع نور الدين وبلغت ذروتها في حطّين وفتح القدس. فما حقّقه ملك إنجلترا من انتصار في عكّا لم يكن له وقعه الحسن على الملك الفرنسيّ الذي زاده استنكافًا عن البقاء ما وقع من خلاف مع الأخير حول تاج مملكة القدس، الأمر الذي جعله يعود أدراجه إلى فرنسا متعلّلًا بالمرض[٧٦]. أمّا نِدّه الملك الإنجليزيّ، فقد دفعه انتصار عكا على البقاء سنةً ثانيةً، كان أبرز ما فيها تلك المفاوضات التي يرى فيها باركر سمةً علمانيّةً أخرى، لا سيّما الجانب الخاصّ فيها بمشروع زواج العادل، أخي صلاح الدين، من جوانا، أخت ريتشارد ملك إنجلترا. والواقع أنّ هذه المسألة لم تكن موافقةُ السلطان الأيّوبيّ عليها سوى كسب للوقت الذي كان في بال الملك الإنجليزيّ أيضًا، إذ كان الأوّل يرى في هذا المشروع مجرّد مناورة من الثاني، سرعان ما أكّدها

(٧٤) المصدر نفسه، الصفحة ٨٦.

(٧٥) المصدر نفسه، الصفحة ٨٩.

(٧٦) المصدر نفسه، الصفحة ٩٠.

رفض جوانا له[77]، على أنّ ذلك لم يحل دون الوصول إلى صلح مدّته ثلاثة أعوام بين الطرفَين، ثمّ التسليم فيه من جانب ريتشارد بترك القدس ومعها المدن الساحليّة للمسلمين، على أن يُسمح «لجماعات قليلة من الصليبيّين بزيارة القبر المقدّس»[78]، وكان هذا الاتّفاق اعترافًا من جانب الملك الإنجليزيّ بصعوبة المهمّة التي غاب عن عرشه وقتًا غير قصير من أجل تحقيقها، ومن ثمّ توظيفها في دعم موقعه السياسيّ الأوروبيّ، كما جاء الاتّفاق تكريسًا لفشل الحملة الصليبيّة الثالثة برغم الهالة التي أحيطت بها والإمكانات التي توفّرت لها.

على أنّ الجبهة الإسلاميّة التي وحّدها شعار استعادة القدس، وما هيّأته الظروف من شخصيّة قياديّة مهّدت الطريق (نور الدين)، وثانية قطفت الثمرة المنشودة (صلاح الدين)، لم تكن متماسكةً إلى الحدّ الذي يضمن استمرارها موحّدةً، بعد افتقاد قائدها الذي سرعان ما توفّي أعقاب الصلح مع ريتشارد، تاركًا دولته لأبنائه، يهدمون ما بنته جهود السلف وحقّقته الطموحات البعيدة، أمّا القدس فكانت من نصيب ابنه الأكبر الملقّب بالملك الأفضل الذي حاز السيطرة على الشام، بينما كانت مصر من نصيب الابن الآخر الملقّب بالملك العزيز. ولا شكّ أنّ وجود أخوَين ولهما ذات الصفة «الملكيّة»، سيؤدّي إلى متاعب في دولة صلاح الدين، ويجعلها عرضةً للانقسام الذي انعكس على القدس بوجه خاصّ. وكان ذلك أحد الأخطاء الفادحة لصلاح الدين الذي لم يقدّر النتائج المترتّبة على دولة يحكمها رأسان، ولم يحسم في حياته وضع القدس بصورة تامّة، على نحو يحول دون افتقادها مرّةً أخرى وإبعاد شبح الخطر الصليبيّ عنها. فما لبث الأفضل أن شعر بثقل العبء في الدفاع عن القدس، متنازلًا عنها لأخيه العزيز، ثمّ تراجع عن ذلك

(٧٧) **الحروب الصليبيّة كما رآها العرب**، مصدر سابق، الصفحة ٢٦٦.

(٧٨) **الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الصفحة ٩١.

بعد اختلال ميزان القوى لمصلحة الأخير الذي قام بحملة الشام مقرّرًا انتزاعها منه. ولم يتراجع العزيز إلّا بعد التسليم بسيطرته على القدس والأعمال التابعة لدمشق[٧٩]. ولكنّ العزيز لم يعمّر طويلًا، فقد جاءت وفاته المفاجئة لتضع الدولة الأيوبيّة أمام تجربة جديدة، ساد فيها الخلاف على وصاية المنصور ابن العزيز، بين العادي أخي صلاح الدين والأفضل ابنه، سرعان ما حسمه الأوّل إلى جانبه، مرتكبًا الخطأ نفسه الذي وقع فيه أخوه، باقتسام «المملكة» بين أبنائه، وقد أعطيت الشام بما فيها القدس للمعظّم عيسى الذي تهيّب خطر الصليبيّين إلى درجة القيام بتخريب المدينة، خشية وقوعها تحت سيطرتهم، بعد استيلاء هؤلاء على دمياط في سياق الحملة الصليبيّة الخامسة[٨٠].

ولم يقتصر الأمر على هذا الحدّ الذي كان محصّلةً للتناحر الداخليّ بين الأيّوبيّين، وإنّما وصل بصاحب الكامل، إلى أن يتنازل عن القدس للإمبراطور فريدريك الثاني قائد الحملة السادسة[٨١]، على أن يبقى الحرم الشريف في أيدي المسلمين وتبقى المدينة خرابًا لا يجدّد فيها عمران[٨٢]. وقد دام الأمر على هذا النحو أحد عشر عامًا (١٢٢٨ – ١٢٣٩م)، حين توفّي الكامل وهُزم ابنه الصالح نجم الدين أمام ابن عمّه الناصر داوود، في وقت نقض فيه الصليبيّون الاتّفاق وأخذوا في تعمير القدس، ممّا دفع الأخير إلى محاصرتها وإخراج الصليبيّن منها[٨٣]. غير أنّ الملك الأيّوبيّ لم يتمتّع طويلًا بانتصاره، وما لبث الصالح نجم الدين أن عاد فاستقوى عليه، وخضعت له الشام مع القدس، حيث جدّد عمارتها

(٧٩) **مدينة القدس في العصر الوسيط**، مصدر سابق، الصفحة ٤٩.
(٨٠) **الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الصفحة ١٠٨.
(٨١) المصدر نفسه، الصفحة ١١٣.
(٨٢) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، الجزء ١، الصفحات ١٢٩ إلى ١٤١.
(٨٣) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحتان ١٤١ و١٤٢.

وأسوارها[٨٤]، واضعًا بذلك حدًّا للخطر الصليبيّ الذي زال عن المدينة بعد انتقال سيادتها إلى المماليك، وتشكيل هؤلاء قوّةً متماسكةً ورادعةً في وجه الخطر الذي سرعان ما تلاشى نهائيًّا عن الشرق ومعه أسطورة ما عُرف بالحركة الصليبيّة في العصور الوسطى.

## خلاصة

وهكذا، فإنّ السيطرة الأوروبيّة على القدس، متمثّلةً بالحركة الصليبيّة، اقترنت بضعف القوى الإسلاميّة في الشرق وتفاقم الصراع بينها على النفوذ، من صراع فكرويّ بين العبّاسيّين والفاطميّين، إلى صراعات سلطويّة بحتة بين المتنازعين على هذه المدينة أو تلك. ولا شكّ أنّ الانهيار الذي حلّ بكلٍّ من مصر والشام والفشل في إقامة الجبهة السياسيّة الموحّدة كان أحد الحوافز الرئيسة للصليبيّين، الذين اتّخذوا من السيطرة على القدس شعارًا يخفون وراءه أطماعهم وجماح غرائزهم، وغير ذلك ممّا لم يتح لهم تحقيقه في ظلّ النظام الإقطاعيّ الأوروبيّ. ولقد كانت القدس الهدف المعلن الذي حرّضت عليه البابويّة والتزمت به القلّة المتطرّفة، بينما شهوة السلطة كانت المحرّك للأمراء الذين سرعان ما تقاسموا الغنائم، واتّخذ كلّ منهم لنفسه دويلةً مستقلّةً عن الأخرى، ولا تكاد ترتبط بأكثر من علاقة سطحيّة مع «مملكة القدس»، التي كانت من حيث المبدإ السلطة المركزيّة لهذه الدولة الصليبيّة المفكّكة. ولكنّ القدس، برغم أنّها لم تختلف عن هذا النمط من الإمارات المنتشرة في عدّة بقاع من بلاد الشام، فقد ظلّت كعهدها، المدينة المنوّرة، والمرتبط بها أمن المنطقة واستقرارها.

---

(٨٤) ابن الجوزي، مرآة الزمان، الجزء ٨، الصفحتان ٧٦٣ و٧٦٤.

وثمّة مؤشّرات عديدة تعبّر عن هذه الأهمّيّة التي مثّلتها القدس على الدوام، حتّى في إطار الصراع بين القوى الإسلاميّة، التي ظلّت المدينة تشكل عقدتها في السيطرة الكاملة على بلاد الشام. ولعلّها من هذا المنظور كانت تجسّد نقطة التوازن ليس في المشروع السياسيّ الخاصّ بالمنطقة، ولكنّها بصورة أكثر حيويّةً تُعتبر حلقةً أساسيّةً في مشروع وحدة القطرَين الشاميّ والمصريّ، وهو الذي تنبّه إلى أهمّيّته نور الدين محمود وسعى إلى تحقيقه في أيّامه الأخيرة. ولا شكّ أنّ هذا الرجل، بما جسّده من طموح ومصداقيّة يتجلّيان بوضوح وإسهاب في الكتابات التاريخيّة المعاصرة له، كان على وعي تامّ بالأهمّيّة الجغرافيّة والسياسيّة، فضلًا عن الدينيّة للقدس، وما يمكن أن يكون لذلك من دور في مشروعه الرامي إلى وحدة القطرَين وتضييق الحصار على الصليبيّين. ولقد نجح نور الدين في وضع الأسس الصلبة لهذا المشروع الذي قُدّر له رجل من تلامذة الأخير ومن المتأثّرين به، محقّقًا الكثير من أهداف سلفه. ولكنّ صلاح الدين، وحسب المصادر المعاصرة للرجلَين، لم يَرْقَ بجذريّته إلى مستوى نور الدين الذي جعل من القضيّة العامّة قضيّته الخاصّة، مجسِّدًا نموذجًا قياديًّا لا نجد ما يماثله في المرحلة الصعبة، بينما تتجلّى ثغرات في قيادة الأوّل، قد يردّ المؤرّخون بعض أسبابها إلى النزعة التسامحيّة المفرطة لدى القائد الأيّوبيّ، والتي كانت غير مجدية أحيانًا في التعاطي مع أعداء مثل الصليبيّين، ولعلّ إحدى هذه الثغرات كانت السبب في ضياع القدس مرّةً أخرى، نتيجةً للفكر الإقطاعيّ الذي دفع صلاح الدين إلى اقتسام دولته مع أبنائه.

ولكنّها صفحة مضيئة بالرغم من تلك الثغرات، وأكثرها إضاءةً ما عبّر عنه مشروع الوحدة السياسيّة التي مهّدت لاستعادة القدس، مؤكّدًا أنّ التحدّيات مهما عظمت ليست حائلًا بين الشعوب وأهدافها الحيويّة، لاسيّما النابعة من ضمير الأمّة ومن تراثها وقيمها الساطعة. والقدس

«الصهيونيّة» هي نفسها القدس «الصليبيّة»، حالة تاريخيّة مفتعلة، ولا يمكن إلّا أن تكون هدفًا حيويًّا للمسلمين، ونقطةَ أساسٍ في الصراع مع الصهيونيّة والقوى الدوليّة المتآمرة معها، ويبقى أنّ الخيارَ ذاته لا مندوحة عنه، ذلك الذي باع نور الدين نفسه له وعبّأ المسلمين من أجله، في وقت ربّما رأى فيه هؤلاء، فضلًا عن الصليبيّين، مشروعًا غير واقعيّ. فماذا يحول دون اقتباس الخيار الذي ينبغي أن يظلّ بمستوى ما تحتلّه القدس من موقع على الأرض وفي التراث؟

# القدس من بعد وفاة صلاح الدين حتّى الحملة الصليبيّة السابعة

أ.د. سهيل زكّار[1]

توفّي صلاح الدين يوسف بن أيّوب في صباح يوم الأربعاء في السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمئة للهجرة (٤ آذار ١١٩٣م)، «فغشي القلعة والبلد والدنيا من الحزن ما لا يعلمه إلّا الله»، وجُهّز صلاح الدين ودُفن أوّلًا في قلعة دمشق، ثمّ نُقل بعد ذلك إلى موقع قريب من الجدار الشماليّ للمسجد الجامع الأموي، ودُفن هناك، وكان اسم المنطقة الكلّاسة، وبوفاته طُويت صفحة كانت الأهمّ في صفحات تاريخ الحروب الصليبيّة.

وخلّف صلاح الدين عددًا كبيرًا من الأولاد، وكانت أهمّيّة أخيه العادل قد ازدادت قبل وفاته، ويُلاحظ أنّ الدولة التي أسّسها صلاح الدين أخذت تتفكّك عراها قبل وفاته، فقد تصارع أولاده من بعده، واستفاد من ذلك أخوه العادل، فجرّدهم من أملاكهم إلى أن أصبح سيّد السلطنة الأيّوبيّة، وامتلك العادل أيضًا عددًا كبيرًا من الأولاد، وزّع فيما بينهم ممالكه، فدخلوا في صراعات مميتة أفادت الصليبيّين كثيرًا.

وكان أبرز أولاد العادل الكامل محمّد، الذي ولي مصر وسعى إلى تجريد إخوانه من أملاكهم، فخاض ضدّهم حروبًا قاسيةً، كما أنّه واجه

---

(١) محقّق وباحث سوريّ متخصّص بالتاريخ ولا سيّما تاريخ الحروب الصليبيّة، نال شهادة الدكتوراه في التاريخ وعمل كمدرّس جامعيّ في جامعات لبنان وسوريا والمغرب. أبرز مؤلّفاته موسوعة تاريخ الحروب الصليبيّة التي تقع في ٩٥ مجلّدًا. له دراسات عديدة منها: «مدخل إلى الحروب الصليبيّة»، «أخبار القرامطة»، «تاريخ الإسلام»، «تاريخ يهود الغجر»، بالإضافة الى العديد من الترجمات.

الحملتَين الصليبيّتَين الخامسة والسادسة، وفي الحقيقة كان له شأن خاصّ مع الحملة السادسة التي قادها الإمبراطور الألمانيّ فردريك الثاني.

وغالبًا ما عرض الملوك من بني أيّوب القدس وفتوحات صلاح الدين على الصليبيّين للحصول على المساعدة في صراعاتهم الداخليّة، وفي أثناء عمليّات الحملة الخامسة في مصر، هدم الملك المعظّم ابن العادل دفاعات القدس وقسمًا كبيرًا من المدينة، وكان لعمله هذا وقعه القاتل المميت، وأخفقت الحملة الخامسة، وإثر ذلك استأنف أبناء الملك العادل حروبهم الداخليّة، ووجد الكامل نفسه في وضع صعب، فتوجّه بناظرَيه نحو الإمبراطور فردريك الثاني، الذي كان آنذاك داخلًا في صراع مع البابويّة، ومحرومًا كنسيًّا، فكتب إليه سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م بأن يحضر إلى الشام والساحل فيعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل، ووجد هذا الإمبراطور فرصةً ذهبيّةً في هذه الدعوة، فلبّاها.

وفي هذه الآونة كان جنكيز خان قد أسّس إمبراطوريّته، واجتاح الأراضي الإسلاميّة في بلاد ما وراء النهر، ودمّر دولة خوارزم شاه، فهرب سلطانها جلال الدين منبكرتي إلى أعالي الجزيرة وأرمينية، وهناك امتلك جيوشًا كبيرة، ولذلك راسله الملك المعظّم عيسى أخو الكامل، صاحب دمشق، يطلب منه نجدته ضدّ أخيه وضدّ الإمبراطور فردريك، وهكذا تعقّدت العلاقات بين الإخوة الأيّوبيّين، وتجهّز الملك الكامل وخرج من مصر بعساكره ليستولي على دمشق، ولكن حدث أثناء قصده لدمشق حوادث كبيرة، فقد توفّي الملك المعظّم عيسى في هذا العام[٢]،

(٢) ابن واصل الحموي، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، تحقيق جمال الدين الشيّال (القاهرة: ١٩٥٣)، الجزء ٤، الصفحات ١٧٩ إلى ١٨١ و٢٠٤ إلى ٢١٨؛ أحمد بن إبراهيم الحنبلي، **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب** (بغداد: ١٩٧٨)، الصفحات ٢٧٦ إلى ٢٨٩؛ سبط ابن الجوزي (أبو المظفّر يوسف بن قزاوغلي)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، نسخة المتحف البريطانيّ، الرقم ٤٦٤، الجزء ٢، الصفحات ٦٤٤ إلى ٦٥٢. ومات منكبرتي بعد هذا مقتولًا، لكنّ جيوشه بقيت

وربّما مات مسمومًا، فطويت بعد وفاته صفحة من صفحات الصراعات الأيّوبيّة الداخليّة، وفُتحت صفحة جديدة أكثر حدّةً، وأشدّ تعقيدًا، والمهمّ، لنقف أوّلًا هنا، عند ما عُرف باسم الحملة الصّليبيّة السادسة.

وكان فردريك الثاني قد جرى تتويجه ملكًا على ألمانيا في ٢٥ تمّوز ١٢١٥م، وفي يوم تتويجه حمل شارة الصليب، وكان من المفترض أن يرافق الحملة الخامسة، لكنّه أجّل ذلك مرارًا، وبعدما أخفقت هذه الحملة، رفع قادتها أصواتهم عاليةً ضدّ فردريك، ووجّهوا إليه اللوم لتوانيه في تقديم الدعم لهم، وبناءً عليه أمر البابا بعقد مجمع دينيّ عام في فيرينتينو Ferentino في آذار عام ١٢٢٣م لمناقشة خطط صليبيّة جديدة، وحضر المؤتمر البابا هونوريوس الثالث [١٢١٦ - ١٢٢٧م] والملك فردريك والكاردينال بيلاغوس، قائد الحملة الصليبيّة الخامسة المخفقة، وجون بريين ملك مملكة القدس في عكّا، ورالف بطريرك القدس، مع مقدّمي فرسان التيوتون الألمان، والداوية والإسبتاريّة، وتمّ الاتّفاق في هذا المؤتمر على أخذ مدّة عامَين للاستعدادات، وخطب فردريك إيزابيلا دي بريين، ابنة جون والوارثة لعرش القدس من خلال أمّها، ولم يقم فريدريك بالمغادرة كما وعد في عام ١٢٢٥م، واكتفى بإرسال أسطول مكوّن من أربعة عشر غليونًا إلى عكّا، وحمل هذا الأسطول جيمس أسقف باتي، الذي عمل بمثابة وكيل له، وتولّى هذا الأسقف عقد قران الأميرة إيزابيلا على فردريك في كنيسة الصليب المقدّس في عكّا، وبعد مراسم الزواج حُملت إلى صور حيث جرى تتويجها ملكةً على القدس، وبعد ذلك حُملت في سفينة إلى زوجها في الغرب.

واستمرّ فردريك يؤجّل سفره حتّى ضمن لنفسه تاج مملكة القدس، على أساس أنّ زواجه أفقد جون دي بريين حقّه، لأنّه كان نائبًا لزوجته،

---

في المنطقة وصارت تُعرف باسم الخوارزميّة.

واحتجّ جون وسانده البابا، ورفض الاعتراف بفريدريك ملكًا على القدس، وكان على فريدريك الظهور خلال عام في عكّا، وتشجّع فريدريك الآن باتّفاقاته مع الملك الكامل، ووجد نفسه أنّه ليس بحاجة لاصطحاب قوّة عسكريّة كبيرة معه، وقرّر التوجّه نحو عكّا عام ١٢٢٧م، وتمّ إقلاعه بالفعل في الثامن من أيلول من العام، لكنّه ما لبث أن عاد، وأجّل ذلك حتّى حزيران من عام ١٢٢٨م، ممّا أغضب البابا الجديد غريغوري التاسع [١٢٢٧ – ١٢٤١م]، وكانت زوجته إيزابيلا، ابنة السابعة عشرة من عمرها، قد ولدت لفردريك ولدًا ذكرًا، حمل اسم كونراد، ثمّ توفّيت بعد ذلك بأيّام، ممّا جعل عرش القدس يؤول شرعيًّا إلى ابنها، وصار فريدريك الآن الوصيّ على عرش القدس.

وقبل قدوم فردريك إلى عكّا، كان الملك المعظّم عيسى ما يزال حيًّا، وكان يُعدّ الملك الشرعيّ للقدس وفلسطين بحكم كونه ملك دمشق، ولذلك لم يمتلك الكامل محمّد حقّ التصرّف بالقدس، ولكي يؤكّد المعظّم على اهتمامه بالقدس، وتملّكه لها زار القدس قبل وفاته بعام، وبصحبته لفيف من العلماء، وفي العام الذي توفّي به قدم إليه رسول الإمبراطور فردريك «بعد اجتماعه بالكامل يطلب الفتوح، فأغلظ عليه، وقال: قل لصاحبك، ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى السيف»، وبعد هذا بأمد وجيز توفّي المعظّم[٣]، وقيل كان ذلك بسبب الإسهال الشديد، فهل مات مسمومًا؟

(٣) مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحات ٢١٥ إلى ٢٣٤؛ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٦٣٤ إلى ٦٥٢؛ سهيل زكّار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة (دمشق: ١٩٩٣)، الجزء ٣٥، «الحملة الصليبيّة السادسة»، الصفحات ٣٢ إلى ٣٩؛ عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة (مع الذيل)، ضمن سلسلة الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٢٩٢ إلى ٢٩٤.

وفي الوقت الذي وصل فيه الإمبراطور فردريك، كان الملك الكامل في نابلس يريد التوجّه إلى دمشق لانتزاعها من ابن المعظّم عيسى «وبلغه أنّ الأنبروز وصل إلى يافا في ميعاده، فعاد السلطان من نابلس إلى تلّ العجول [قرب عكّا]، ونزل عليه، وتردّدت الرسل بين السلطان والأنبروز، وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين ابن الشيخ، فلم يزل يتردّد إلى الأنبروز تارةً بمفرده، وتارةً يأخذ معه الصلاح الإربلي، إلى أن تقرّر الصلح، أن يعطي الأنبروز: البيت المقدّس والقرى التي على طريقه من يافا إلى القدس، ومدينة لدّ، ودخلت سنة ست وعشرين وستمائة، وفيها انتظم الصلح عشر سنين، وخمسة أشهر وأربعين يومًا».

وبعد توقيع الاتّفاق، طلب الكامل من أهل القدس مغادرة المدينة وتسليمها إلى الصليبيّين، ولم يتأثّر بأصوات المعارضة والتشهير، فقد كان في نيّته الفراغ من هذا الأمر للتوجّه إلى دمشق لانتزاعها من ابن المعظّم، ففي اليوم الذي نودي فيه بخروج المسلمين من مدينة القدس وتسليمها إلى الصليبيّين، «وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفّار من أعظم مآثر عمّه الملك الناصر صلاح الدين».

وبعد تسليم القدس «حضر الأئمّة والمؤذّنون الذين كانوا في الصخرة والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل، فأذّنوا على باب الدهليز، في غير وقت الأذان، فعسر ذلك على الملك الكامل، وأمر أن يؤخذ منهم ما معهم من الستور والقناديل الفضّيّة وجميع الآلات، ويتوجّهوا إلى حال سبيلهم».

ووقف أهل دمشق ضدّ تسليم الكامل للقدس، واحتشد جمهور كبير جدًّا منهم في المسجد الأمويّ، حيث تولّى وعظهم سبط ابن الجوزي،

وكان عظيم المكانة مؤثرًا في وعظه، وأثار السبط الناس، وأبكاهم، بعدما تحدّث عن فضائل القدس، وعن الجريمة التي اقترفها الكامل، ووصف شاهد عيان ما حدث فقال: «وكان يومًا مشهودًا، وعلا يومئذٍ ضجيج الناس، وبكاؤهم وعويلهم».

وحدث هذا والكامل محاصر لدمشق يريد انتزاعها من ابن أخيه الناصر داود بن عيسى، ونجح بذلك، حيث سلّمه الناصر داود دمشق وأخذ عوضًا عنها الكرك، وأعطى الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف موسى.

وفي تلك الأثناء دخل فريدريك إلى القدس، حيث توّج نفسه ملكًا عليها في كنيسة القيامة، وبقي في المدينة يومَين، ثمّ عاد إلى عكّا، وكان عليه تسوية بعض الأمور المستعجلة، والإسراع بالعودة إلى مملكته التي كاد أن يفقدها لصالح البابويّة أثناء غيابه.

هذا وسوّغ الملك الكامل تسليم القدس بأنّ الضرورات الداخليّة فرضت عليه ذلك، وأعلن أنّ الصليبيّين لا يمكنهم الامتناع بالقدس لأنّ أسوار المدينة مهدّمة، وقال: «إنّا لم نسمح لهم إلّا بالكنائس، وآدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدّسة، وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكّم على رساتيقه وأعماله».

وهذا تسويغ سلطويّ ضعيف، وفي الحقيقة حقّق فردريك الثاني في حملته سلمًا، ما لم يحقّقه غيره من الصليبيّين منذ الحملة الأولى، ولم ينقل الصليبيّون إداراتهم من عكّا إلى القدس، ذلك أنّه قبل أن يغادر فردريك عائدًا إلى أوروبا نشبت بين قوى الصليبيّين صراعات عنيفة جدًا، لم يحاول أيّ من الأيّوبيّين الإفادة منها لاستعادة القدس ولتصفية الوجود

الصليبيّ في المشرق[٤].

وكان الكامل محمّد أثناء غيابه عن مصر قد استناب ابنه الصالح أيّوب، لكن بعد عودته إلى القاهرة شعر بأنّ ابنه قد تآمر ضدّه، فنفاه إلى الجزيرة، وفي الجزيرة اطّلع الصالح أيّوب على نشاطات الخوارزميّة، وظلّ يفكر وينتظر فرصته للعودة إلى القاهرة، وانتعشت هذه الفرصة إثر وفاة والده في دمشق، بعد وفاة عمّه الأشرف موسى، وخلافة العادل الثاني ابن الكامل في مصر، وكان ذلك سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، ورأى الصالح أيّوب أنّ عرش القاهرة حقّ له، على أساس أنّه كان أسنّ أولاد أبيه الكامل، ودون الدخول في كثير من التفاصيل، وصل الصالح أيّوب إلى حكم دمشق، ثمّ تحرّك للاستيلاء على مصر وخلع العادل الثاني [٦٣٥ - ٦٣٧هـ/ ١٢٣٨ - ١٢٤١م]، فسُجن بعض الوقت في الكرك لدى الناصر داود، ثمّ تعاون مع الناصر داود وبعض قادة جيش مصر، وبذلك دخل القاهرة في ذي الحجّة سنة ٦٣٧هـ/ حزيران ١٢٤٠م، وبعدما صار سلطان مصر انقلبت من جديد التحالفات وفُتحت في هذه الآونة صفحات جديدة من الصراعات الأيّوبيّة-الأيّوبيّة، وحدث في الغالب أن تحالف أكثريّة الأيّوبيّين في بلاد الشام ضدّ الصالح أيّوب، ودخلت بعض المجموعات الصليبيّة في هذه التحالفات، ممّا دفع الصالح أيّوب إلى الإكثار من الاستعانة بالخوارزميّة[٥].

---

(٤) روى فيليب دين وفار أخبار حروب فردريك ضدّ الفئات الصليبيّة في بلاد الشام، انظر كتابه في **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، الجزء ٣٥؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحات ٢٢٥ إلى ٢٥٩؛ **الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة** (مع الذيل)، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٢٩٩ إلى ٣٠٧؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٦٥٢ إلى ٦٥٨.

(٥) ابن واصل الحموي، **التاريخ الصالحي**، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحات ٦٠٤ إلى ٦٠٧؛ ابن واصل الحموي، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب** (القاهرة: ١٩٧٧)، الجزء ٥، الصفحات ٢٣٠ إلى ٢٧٣؛ إبراهيم ابن أبي الدم،

وكان الصليبيّون في القدس قد استغلّوا انشغال الأيّوبيّين بالصراعات على السلطة فعمّروا «في القدس قلعةً، وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وكان قد تُرِك لمّا خرّب الملك المعظّم أسوار القدس»[٦]، وفي عام ١٢٣٩م، تشكّلت في فرنسا بشكل رئيسيّ حملة صليبيّة بقيادة ثيوبولد الثالث كونت شامبين وملك نافار [١٢٠١ - ١٢٥٣م]، ومن المرجّح أنّ أخبار هذه الحملة قد وصلت إلى بلاد الشام، وكان من الذين قلقوا من أجلها الناصر داود بن عيسى صاحب الكرك، فقام في هذا العام عندما أخذت طلائع القوى الصليبيّة تصل إلى عكّا بقيادة قوّاته وقوّات الصالح أيّوب؛ سجينه في الكرك، نحو القدس، فهاجمها فجأةً من عدّة جهات، واجتاح الدفاعات التي كان الصليبيّون قد أقاموها، ثمّ تفرّغ لحصار قلعة برج داود، وعرض بالوقت نفسه على الصليبيّين أنّهم إذا استسلموا سوف يسمح لهم بالمغادرة آمنين إلى عكّا أو صور، أو الممتلكات الصليبيّة الأخرى، واستجاب الصليبيّون وسلّموا القلعة، فسمح لهم بالمغادرة بأمان، وقام الناصر بتخريب القلعة مع برج داود، ثمّ غادر عائدًا إلى الكرك، فقد كانت جموع الحملة الصليبيّة قد احتشدت في عكّا، ولم يكن باستطاعته الوقوف ضدّها، لكنّ هذه الحملة لم تقصد القدس، بل قرّر قادتها بعد مداولات طويلة التوجّه لحصار دمشق، لكنّهم وجدوا أنّ عليهم قبل ذلك تحصين مدينة عسقلان، ووضع حامية كبيرة فيها تعترض القوّات المصرية التي قد تحاول نجدة دمشق،

---

تاريخ ابن أبي الدم، ضمن سلسلة الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحات ٢٨٩ إلى ٢٩٤؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوريّ، ضمن سلسلة الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحات ٤٣٨ إلى ٤٤٧؛ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٧٠٤ إلى ٧٣٧؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب، مصدر سابق، الصفحات ٣٦٧ إلى ٣٧٨؛ الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة (مع الذيل)، ضمن سلسلة الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٣٢٤ إلى ٣٣٣؛ أحمد بن علي المقريزي، السلوك (القاهرة: ١٩٣٤)، الجزء ١، القسم ١، الصفحات ٢٩٩ إلى ٣٠٣، والقسم ٢، الصفحات ٢٦٧ إلى ٣٠٠.

(٦) السلوك، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحة ٢٩١.

وفي عسقلان انجذب الصليبيّون نحو غزّة، فواجهوا الدمار، لذلك قرّر قادتهم العودة إلى عكا، لكنّ ذلك لم يحدث إلّا بعد غارات متفرّقة وبعد التوصّل إلى عقد هدنة مع العادل الثاني سلطان مصر، ولم ينتظر ملك نافار تنفيذ شروط الهدنة وغادر عائدًا إلى أوروبا[٧].

وإثر هذا قرّر الناصر داود التفاوض مع الصالح أيّوب، فاتّفقا على التعاون للإطاحة بالعادل الثاني لصالح أيّوب، وأن يصبح الناصر داود بالمقابل ملكا على جميع بلاد الشام، وقد ذهب الصالح أيّوب مع الناصر داود «إلى القدس، واجتمعا عند الصخرة المقدّسة وتحالفا، فيُقال إنّهما اتفقا على أن تكون الديار المصريّة للملك الصالح نجم الدين أيّوب، والشرق للملك الناصر، وكان الملك الصالح يتأوّل بعد أن ملك ديار مصر أنّه حلف مكرهًا، إذا كان في الحقيقة في حكم الملك الناصر داود، ثمّ سارا بعد توكيد الأيمان بينهما إلى غزّة» وتمكن الصالح أيّوب من دخول القاهرة، واعتقال أخيه العادل الثاني، وفي أواخر ذي القعدة لسنة ٦٣٧هـ/ أواخر حزيران ١٢٤٠م، صار السلطان الأعظم للأيّوبيّين، لكنّه لم يتمكن من ناصية الأمور، وخشي من مؤامرات قادة الجيش، كما أنّ الخلاف نشب بينه وبين حليفه الناصر داوود، وتقلّبت الأوضاع، واضطربت كثيرًا في بلاد الشام[٨]، وأهملت شؤون القدس.

وكان لإخفاق صليبيّة ثوبولد ملك نافار الآثار في أوروبا، وفي الوقت الذي تبادل فيه البابا والإمبراطور فردريك الاتّهامات حول المسؤوليّة

---

(٧) **تاريخ متّى باريس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٤٦، الصفحات ٣٣٥ إلى ٣٣٩؛ **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحتان ٢٩١ و٢٩٢؛ أحمد بن علي السيوطي، **إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى** (القاهرة: ١٩٨٢)، الجزء ١، الصفحتان ٢٨٨ و٢٨٩؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحات ٢٤٦ إلى ٢٤٨.

(٨) **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحة ٣٠٥.

عن هذا الإخفاق، أخذ ملك فرنسا يعدّ العدّة لحملة صليبيّة كبيرة يقودها بنفسه، لكن كان أسرع منه الإيرل رتشارد أخو ملك إنكلترا هنري الثاني، حيث وصل على رأس قوّة كبيرة إلى عكا في الثامن من تشرين الأوّل لعام ١٢٤٠م، وما أن استراح قليلًا في عكا حتّى توجّه إلى عسقلان لإكمال تحصينها، وحدثت آنذاك مفاوضات بينه وبين الصالح أيّوب أسفرت عن عقد هدنة، تجاهل خبرها المؤرّخون المسلمون وأشار إليها المقريزي إشارةً عابرةً بقوله أثناء حديثه عن وقائع سنة ٦٣٨هـ: «وفيها تمّ الصلح مع الفرنج، وأطلق الملك الصالح الأسرى بمصر من الكنود، والفرسان والرجال»[٩]، وحفظ لنا المؤرّخ الإنكليزيّ متّى باريس الذي عاصر هذه الأحداث نصّ تقرير كان رتشارد قد بعث به إلى إنكلترا، حكى فيه عن مفاوضاته مع مندوب أرسله إليه الصالح أيّوب، ثمّ ذكر تفاصيل الهدنة التي أبرمها مع الصالح أيّوب وقضت بإعادة المنطقة الجبليّة والساحليّة العائدة إلى بيروت امتدادًا حتّى ما قبل قلعة شقيف أرنون، وبعد ذلك صفد، وجبل الطور، واللجون، وبيت لحم «وكذلك جميع الأراضي القائمة على الطريق التي تقود من القدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ راما، ومن اللدّ إلى يافا... وجرى أيضًا تسليم مدينة القدس إلى الصليبيّين، ومثل ذلك بيت لحم أيضًا، وجميع الأراضي التي من حول القدس»، أي أنّ هذا الاتّفاق جاء إحياءً لاتّفاق الكامل–فردريك، وزيادةً بالسماح للصليبيّين بإعادة تحصين ما أعيد إليهم، وكان هذا يعني الإلغاء الكامل لجميع جهود صلاح الدين، وأنّ الذي قام به الناصر داود بات بدون قيمة، وفي شباط ١٢١٤، أبرمت الهدنة وأقسم الطرفان على تطبيقها، ثمّ في مطلع أيّار غادر رتشارد عائدًا إلى أوروبا، بعدما عاد الصليبيّون إلى سكنى القدس، وبعد إطلاق سراح الأسرى الذين كانوا في مصر، وإرجاع جثث قتلى الصليبيّين الذين قتلوا في غزّة وفي أماكن

---

(٩) المصدر نفسه، الجزء ١، القسم ٢، الصفحة ٣٠٥.

أخرى، وفي الحقيقة حقّق الشابّ الإنكليزيّ ما لم يستطع تحقيقه عمّه وسميّه رتشارد الأوّل في الحملة الصليبيّة الثالثة؛ لأنّ هذا الملك الدمويّ الشرس واجه صلاح الدين في العقد الأخير من أيّامه حين وهب نفسه للجهاد وأوقفها عليه، لكنّ الصالح أيّوب كان من معدنٍ آخر، تغلب عليه الشابّ الإنكليزيّ الغرير، ذلك أنّه كان مثل أبيه من قبله، يريد الآن امتلاك الكرك، ودمشق وحمص، وجميع أطراف بلاد الشام[10].

ولسنوات خاض كثيرًا من المعارك، نَعِم أثناءها الصليبيّون بالعيش في القدس وسواها، لكنّ القاعدة أنّ نار الفتنة عندما تستعر في منطقة من المناطق لا يمكن لأحد أن يعيش بمنجاة منها، فقد جاء وقت وجد الصالح أيّوب نفسه وقد تحالف ضدّه ملوك دمشق وحمص والكرك مع الصليبيّين، لذلك التجأ إلى الخوارزميّة واستعان بهم، وحرّضهم على مهاجمة القدس حتّى يخذّل الصليبيّين ويمنعهم من الوقوف ضده، وكان الخوارزميّة بحاجة لمن يكتريهم، ويدفع إليهم المال والمؤن، ويغريهم بامتلاك وطن والحصول على أسلاب وغنائم، وهذا كلّه يمكن أن يكون حاملًا لعنوان من عناوين الجهاد، ولا تعنينا هنا إسهامات الخوارزميّة في الحروب الأيّوبيّة الأيّوبيّة[11]، بل سنتفرّغ فقط لحديث القدس:

بعدما أدّى الخوارزميّة خدماتهم الكبيرة للصالح أيّوب طلبوا منه منحهم أرضًا يسكنون فيها، وهدّدوه أنّه إذا لم يستجب فسوف يستولون

---

(١٠) **تاريخ متّى باريس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٤٦، الصفحات ٣٥٤ إلى ٣٧٦، والصفحتان ٣٨٢ و٣٨٣، والصفحتان ٣٩٠ و٣٩١، والجزء ٤٧، الصفحات ٤٥٣ إلى ٤٦١.

(١١) انظر، **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحات ٣١٦ إلى ٣٢٩؛ **الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة (مع الذيل)**، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٣٤٢ إلى ٣٥١؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٧٤٥ إلى ٧٤٧، والصفحات ٧٥٢ إلى ٧٥٤؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٣٣٢.

بحدّ السيف على الذي يرغبون به، فما كان من الصالح أيّوب إلّا أن قال:

«هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان، يوجد بعض الناس، الذين يدعون باسم الصليبيّين، وهم يسكنون في الأماكن الساحليّة، وهم يزدرون شريعتنا، وهم مثيرين للمتاعب لنا، ويسبّبون الأضرار لنا، ويهدّدون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهمّ ومقرّهم الرئيسيّ هو مدينة القدس، اذهبوا بناءً عليه، واطردوهم وعيشوا حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه، سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة، وسوف تمتلكون أراض خصبةً، وستبتهجون بالقلاع والمدن التي تتمنّاها قلوبكم، وسوف تكونون من ذلك الوقت سعداء في ظلّ حمايتي، وظلّ حماية جميع شعبي». وبناءً عليه فرحوا كثيرًا بهذا الكلام، وهاجموا أوّلًا القدس وقتلوا عددًا كبيرًا من الصليبيّين.

ولعلّ هذا العرض جاء من الصالح أيّوب حتّى يكسب هو الوقت، ثمّ يقوم بعد ذلك باستغلال الخوارزميّة في صراعاته الشاميّة، أو أنّ احتلال الخوارزميّة للقدس وفلسطين كان سيمنحه قوّةً دوليّةً حاجزةً تقف بينه وبين الممالك الأيّوبيّة الشاميّة والجزريّة، لا بل لعلّه أراد أكثر من ذلك، وقد رأى الاجتياح المغوليّ للمنطقة، أن يقف الخوارزميّة حاجزًا في وجه المغول إذا ما أرادوا الزحف نحو مصر، وحين أورد متّى باريس أخبار استيلاء الخوارزميّة على القدس اعتمد على ثلاث رسائل أرسل أولاها الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي كان يعدّ نفسه ملك القدس، إلى الأمير رتشارد الذي سلف له عقد الهدنة مع الصالح أيّوب، وتبيّن من هذه الرسائل أنّ النشاط الخوارزميّ ضدّ القدس وانتزاعها من الصليبيّين وطردهم منها كان عام ١٢٤٤م، وجمع الإمبراطور معلوماته من تقارير نوّابه في فلسطين، وأكثر أهمّيّةً من رسالة الإمبراطور، وأعظم تفصيلًا رسالةً بعث بها مقدّم الإسبتاريّة في القدس، وأمّا الرسالة الثالثة فبعث

بها بطريرك القدس مع أساقفة مدن فلسطين التي كانت محتلّةً من قبل الصليبيّين، إلى رجال اللاهوت في فرنسا وإنكلترا، وللأهمّيّة القصوى لهذه الرسائل، آثرتُ إثباتها هنا بالنصّ، حيث جرى نشرها للمّرة الأولى بالعربيّة، وهي تحكي كيف أُعيد فتح القدس الذي يُنسب عادةً إلى الصالح أيّوب.

### رسالة الإمبراطور حول إفراغ الأرض المقدّسة من السكّان

من فردريك، الذي هو بنعمة الربّ، إمبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه المحبوب، رتشارد، إيرل أوف كورنوول، تحيّات، وعواطف خالصة أكيدة:

في راما سُمع صوت بكاء ونحيب، وعويل، وحزن عظيم، وهو صوت انتشر، كما أفادت الأخبار، مثل انتشار أخبار حزننا، وهو صوت، كما يبدو، يدفعه تيّار الخطّ المعاكس إلى آذاننا، ليوضّح أنّ الشرور لا تأتي لوحدها، فهناك أخبار تجلجل مثل أصوات الرعد، ويتردّد صداها حول القدس، وتعلن عن العاصفة المقبلة، التي فيها إفناء دمويّ لأتباع المسيح، وعن الخسارة المؤلمة لضريح الربّ، ثمّ عن التدمير المريع للمدينة المقدّسة، وهذا في أيّامنا! وفتحت هذه البروق سحب السماء، ليس من أجل تساقط الندى، أو زخّات مطر خفيفة، بل لتهطل علينا بفيض من المصائب، ولبعض الوقت أنعش الحبُّ والإيمان الصحيح المسيحيّين الذين نجوا من المذبحة التي عملها الخوارزميّة، ليقوموا بالانتقال لذلك الدمار، ولتلك الفاجعة الكبرى، ففي اللحظة نفسها لمؤتمرات القادة، ومع رغبة كلّ عسكريّ خاصّ أُلهِم لأن يفعل شيئًا ما، ردًّا على تلك الانتكاسة، كان بطريرك القدس يأمل بأن يحصل لنفسه على مجد النصر كلّه، وكان

يبحث عن كلّ أمير آخر، وشريك هناك غير جدير ليكون شريكًا معه، وهنا بدأ يبشّر بصليبيّة الربّ، ورفع من معنويّات الذين سمعوه، وألهبهم بشجاعة وصلت إلى حدّ الطيش، وبناءً عليه قام الجيش الصليبيّ، من دون انتظار للساعة الموائمة، وهي القاعدة الأكثر أهمّيّةً في الحرب، في يوم الاثنين قبل عيد القدّيس لوقا الإنجيلي، وهو مكوّن من جميع أنواع الفرسان الأجانب، قام أفراده بإلقاء أنفسهم على الخوارزميّة المتقدّم ذكرهم، الذين كانوا متوقّعين للهجوم، وكانوا مستعدّين للمقاومة، وهكذا حدث في هذه المعركة السيّئة الطالع، أنّه لم ينجُ أحدٌ من جميع الصليبيّن من القتل، أو من الوقوع بالأسر، ونجا آخرون – وكانوا قلّةً قليلةً – بفضل وسائل التفريج التي واجهوها أثناء فرارهم، وكان معظم هؤلاء الذين لم يندفعوا بطيش إلى وسط حومة القتال، حيث كان هناك قرع للسلاح، وزمجرة ضربات المتنازلين، وكان الذين نجوا من بين جميع بارونات الأرض المقدّسة، ومن عساكر مملكة القدس، ومن بين جميع عسكريّي رهبان الداوية، الذين بعثوا ثلاثمائة، ومن إسبتاريّة القدّيس يوحنا، الذين كانوا قد أُرسلوا مائتين، ومن بين جميع الذين حشدهم فرسان رهبان القدّيسة مريم للتيوتون، كان الذين نجوا من هؤلاء ليس أحدًا، إلّا البطريرك المتقدّم الذكر، واللورد سيمون دي مونتفورت (الذي كان حاملَ علم المملكة، وقائدَ المقدّمة) وأربعة من فرسان، وعدد ضئيل جدًّا من خدم الداوية، وتسعة عشر من الإسبتاريّة، وثلاثة خدم فقط من خدم الفرسان التيوتون، فهؤلاء فقط الذين عادوا، ولقد عادوا إمّا لحسن حظّهم، أو بوساطة الفرار، وكان هناك رجل من ذوي الشهرة مثل أسقف اللد، وصاحب حيفا، قد سقطا على أرض المعركة، وقد أصيبا بجراحة مميتة، وقد أصيب وولتر أسقف يافا بجراحة قاتلة، أمّا رئيس أساقفة صور الذي لم يمت من جراحاته، فقد أُلقي به في السجن، وقد علم سموّنا بهذه الأشياء كلّها، من الرسائل التي أُرسلت إلينا من

بيت رهبان القدّيسة مريم للتيوتون.

وتسبّب هذه المحصّلة المحزنة للأشياء، وتقدّم في ذاتها سببًا للأسى، وتسحب المرارة من قلوبنا، ومن قلوب جميع أمراء الإيمان المسيحيّ، وهي تستحقّ انهمار فيض من الدموع من أعيننا، بسبب طبيعة الفاجعة، لأنّه تقدّم عليها خطأ كبير، وتبعها كثير من الإهمال، لأنّه بالإضافة إلى إثارة هياج الفخار الدينيّ للداوية، الذين عاشوا على موارد بارونات الأرض، لقد أرغموا بحرب غير عادلة وغير حكيمة سلطان مصر على طلب مساعدة الخوارزميّة، وذلك في ازدراء كامل لمعاهدتنا الملكيّة التي عقدناها مع ذلك السلطان، ومع بيتي رهبان القدّيس يوحنا، والفرسان التيوتون للقدّيسة مريم، وقد أظهر هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم سذاجةً طفوليّةً، ودليلًا على الحماقة، وذلك عندما وضعوا ثقتهم في البرابرة المتذبذبين، متوقّعين أن يجدوا الوفاء لدى الخونة، فباستخدامهم لوسائل غير أمينة، اتّحدوا مع سلطانَي دمشق والكرك، اللذين لم يختلفا عنهم بالعقيدة فقط، لا بل تفاوتا معهم بالمصالح، وكان الهدف من ذلك تقديم العون ضدّ الخوارزميّة والسلطان، وكانوا بهذا كمن أرسل بكمّيّات من الزيت لصبّها فوق النار الملتهبة.

وبناءً عليه، حسبما سمعنا بشكل واضح ورُويَ لنا من بعض الرهبان الذين قاموا من المناطق الأجنبيّة، استقبل الداوية السلطانَين المتقدّمَي الذكر، مع أتباعهما في أرباض بيوتهم، أي بيوت الداوية مع الفرح والاحتفالات، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الوهميّة، وأبّهتهم المدنيّة، مع الدعاء باسم محمّد، ولم يعد من الممكن إبعاد هؤلاء الذين وُجّهت إليهم الدعوة، ولا بأيّ شكل من الأشكال، ولا باللطف من طبيعتهم، كما أنّهم لم ينثنوا عن البقاء بوساطة وعد التحالف الذي أقسموا عليه، وذلك عن متابعة ميولهم العدوانيّة، لا بل أظهروا بشكل واضح جدًا أنّ

الحنث باليمين ليس بالحريّ الوفاء به. أمّا سلطان حمص، الذي أرسله سلطان دمشق لمساعدة الذين عملوا تحالفًا للقتال ضدّ سلطان مصر، والذي لم تكن لديه آمال بنيل الخير على يدَي سلطان مصر، فقد هرب، ونجا من المعركة مع خمسة فقط من رجاله، أمّا بالنسبة للبقيّة، فإنّهم بعد صراع قصير تظاهروا فيه بالقتال، ذهبوا سالمين مع رجالهم كلّهم إلى سلطان الكرك من دون قتال، ولا حتّى ما يشبه القتال، وهكذا صفّوا أنفسهم إلى جانب الذين اقترنوا بهم في قلوبهم، وعلاوةً على ذلك، إنّ الإهمال الشديد الذي هو الخطوة الأخيرة نحو الدمار، عندما تكون سلامة واحد معلّقةً على عصا، ويلفظ كلّ خطر، ويهدّدنا بدمار سريع، وبالنسبة لزعماء الشريعة الأرثوذكسيّة – وهو أمر نحن جميعًا أرثوذكس – لا يمكننا أن نكتب عنهم من دون ألم كبير، هم بعيدون عن التفكير حول ترميم مثل هذه المأساة المحزنة، باستثناء التنهّدات، وفق طريقة أجدادنا، من أجل مثل هذه الأحداث المؤسفة، ولكن وكأنّ الشؤون لم تكن شؤون المسيحيّين، أو الايمان المسيحيّ، لم نهتمّ بجراحاتنا، ولم نهتمّ حول أوجه المعالجات، فالربّ قد طاردنا، ونحن لم نتشكّ، فنحن محاطون من كلّ جانب بأسقفنا المحترقة، ومع ذلك لم نركض من أجل إحضار الماء، لا بل كلّ واحد متجمّد مسرور في سوء حظّ الآخر، ففي المكان الأوّل الوحشيّة الجديدة للتتار قد أذهلتنا، وفي المكان الآخر هناك النكد القديم للشعوب البربريّة يحرقنا ويعذّبنا.

ثمّ هناك في الأماكن الأخرى الخيانة المخجلة للبيترنيّين التي قد أغضبتنا، وفوق كلّ شيء، خيانة الذين يضعفون الإمبراطوريّة المقدّسة في إيطاليا بوساطة أعمال عصيانهم، حيث إنّهم بذلك يعيقوننا عن إخضاع الشعوب البربريّة إلى الإمبراطورية المسيحيّة، وفقًا لما تطلبُه الكنيسة الكاثوليكيّة في طقوسها المقدّسة، وهكذا دفعنا في كلّ اتّجاه من قبل الأعداء المعلنين، أو من قبل عذاب الأعداء المتخفّين، والشيطان

يعمل بشكل متواصل، وهو متيقّظ، بينما سمعان نائم، ونحن غير مُتسامَح معنا هناك، حيث يمكن للنوم أن ينعش أعيننا، وللرقاد أن ينعش قلوبنا، وانهضوا، بناءً عليه، أيّها الرجال الشجعان، واحملوا سلاحكم وترستكم للانتقام لأذى أيّامنا، فهي مدوّنة بشكل أنّنا لا يمكننا أن نتجنّبها، والربّ هو الشاهد علينا بأنّنا قدّمنا دومًا بكرم زائد العون لمساعدة الأرض المقدّسة أكثر ممّا طلبته من عون الآخرين، لأنّنا نعتقد أنّك لست جاهلًا بالعسكريّين من وراء الألب، الذين هم قوم يحبّون القتال، وكيف أنّهم حملوا إشارة الصليب الرائع، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الأرض المقدّسة، ثمّ كيف دعوا بوجوب أن يعهد بها إلى مقدّم مشهور، وأن يجري توجيهها من قِبل الذين كانوا يعبرون البحر، فلم يرفض سمّونا منحها التأييد بموافقتنا.

علاوةً على ذلك، لقد عرضنا شخصنا، أو شخص ابننا، أو أيّ قائد آخر يراه هؤلاء القوم أنّه شخص مناسب، واعدين بوجوب أن يصاحب الجيش ألف فارس مأجورين، نحن سوف نتولّى الدفع إليهم باستمرار للمساعدة في مثل هذا الشيء الجيّد، وبناءً عليه أرسلنا بيرارد Berard، رئيس أساقفة بلرم، وأسقفي ريغيو Reggio وفلورنسا، وكذلك أسقف سوسا، المحبّبين منّا والمقرّبين إلينا، إلى غريغوري، الذي كانِ آنذاك الحبر الأعظم الحاكم، وذلك ليكونوا بمثابة نوّاب خاصّين من سموّنا، ليسألوه لا شيء أكثر من الحماية – بوساطة حارس أمين ومناسب – لنا، ولأولادنا، ولإمبراطوريّتنا ولممالكنا، ولكي يمكن أخيرًا إرجاع اللومبارد المعاندين الوقحين والعصاة علينا، إلى معاودة الاعتراف – حسبما متوجّب عليهم أن يفعلوا – بالحقوق وبالسيادة العائدة إلى الإمبراطوريّة الرومانيّة، ومن أجل أنّه عندما يشاهد العصاة المتقدّم ذكرهم أعلاه، أنّ اتّحادهم، أو بالحريّ، تآمرهم قد جرى تدميره، وقتها يمكن أن يدفعوا من أجل أن يسدّدوا لنا مواردنا، مثلما يفعل رعايانا الآخرون، وكما تدفع الدول

الأخرى إلى ملوكها وسادتها الشرعيّين.

ثمّ إنّنا بعدما قدّرنا الظروف وأحوال الزمان، رأينا مسبقًا ما وقع حاليًّا وارتعبنا منه – مع أنّ معرفة الذي سيكون هو أمر مرفوض ولا يمكن معرفته من قبل إنسان فانٍ – لأنّ شرور الأيّام قد اتّسعت بشكل كبير، وأنّه في سبيل دمار إيطاليا سمح البابا الحاكم للكنيسة، بموافقة مع البابويّة، بزيادة عدد أعدائنا، وغريغوري البابا الحاكم قد مات، وقد ضعفت السلطة البابويّة بخلافات هذا الوقت وتمزّقاته، والذي يحكم الكنيسة الآن، والموضوع على رأس البابويّة، قد قدّمنا له بوساطة مندوبينا مقترحات أكبر بكثير ممّا كان من قبل، وهي مقترحات ما من أحد فكّر مصيبًا قط أنّ من الحقّ رفضها وعدم قبولها، وهذه المقترحات هي أنّنا بعد اعتمادنا على مولانا الجبّار يسوع المسيح، الملك المنتصر، صرفنا أنفسنا لأن نحمل على أكتافنا حملًا ثقيلًا، وأن نثقل أنفسنا بجميع شؤون ما وراء البحر، وعلاوةً على ذلك فيما يتعلّق بالعاصفة المهدّدة للتتار، وبالمخاوف من جهة إمبراطوريّة القسطنطينيّة، فذلك سيكون وفقًا لما قدّمه الرسول المتقدّم لسموّنا من تعليمات إليكم وإلى الملوك الآخرين والأمراء.

آه، كم كانت الفوائد كبيرة التي كانت ستكون بعد حين لفائدة الصالح العامّ، من الترياق الذي تمّ عرضه من قِبل إخلاصنا، في الوقت الذي كان من الممكن فيه معالجة الضعف، وذلك قبل وقوع الضربة الثانية من الخطّ المعاكس، وتوجيهها ضدّ الجرح، ومضاعفة آلام الندبة الأولى، ونحن لا نعتقد أنّ الأمور ينبغي أن تُترك هكذا لليأس أو للموت من دون التفكير بعلاجات هي ممكنة وينبغي العودة إليها. وبالنسبة إلينا، إنّ جبروتنا لا يمانع في المساهمة في خطّة مفيدة من هذا النوع، لا بل إنّنا نعد بتقديم مكاتبنا الجيّدة برغبة أعظم، ولأنّنا نشاهد بأنّ الفأس قد

وُضع عند جذر الشجرة، نقدّر أنّه بات من الضروريّ بالنسبة لنا ولجميع أمراء الإيمان الصحيح، أن يقدّموا بناءً عليه المساعدة، حيث ما دامت إيطاليا – على كلّ حال – بسلام معنا، وممتلكاتنا وحقوقنا التي تمتع بها أبوانا الأقربان بسلام في كلّ مكان من الإمبراطوريّة والمملكة، حيث عادت إلينا ومعنا بسلام، فإنّه بذلك استردّ جناحانا نشاطهما، وتماسك ريشهما، فبهما يمكن أن تحلّق عاليًا بأمان عظيم.

صدر في فوجيا Foggia، في السابع والعشرين من شباط، في العلامة الثالثة.

## رسالة أخرى أكثر تفصيلًا من مقدّم الإسبتاريّة في القدس

إلى اللورد م. دي ميرلي Merlaye الأعظم قوّةً، يرسل تحياته من القلعة الجديدة (نيوكاسل) الذي هو بنعمة الربّ المقدّم المتواضع للدير المقدّس في القدس، والوصيّ على الأتباع الفقراء للمسيح:

من المعلومات الواردة في رسائلنا التي أرسلناها لكم في كلّ عبور يمكنكم أن تروا بما فيه الكفاية من الوضوح، كيف سارت شؤون الأرض المقدّسة بشكلٍ سيّئ، وذلك بسبب النزاعات التي كانت قائمةً منذ زمن طويل، وذلكَ في وقت عمل الهدنة، وفيما يتعلّق بالارتباط بموقف الدمشقيّين ضدّ سلطان مصر، ونحن نرغب أن يعلم معاليكم بالأحداث الأخرى بعد انقضاء الهدنة، حيث اعتقدنا أنّه من المفيد أن نخبركم أنّه في حوالي بداية الصيف الذي انصرم أخيرًا، تصالح سلطان دمشق مع السلطان الناصر، صاحب الكرك، بعدما كانا من قبل متعاديَين، فقد أقاما سلامًا فيما بينهما، ودخلا بمعاهدة مع الصليبيّين، على شرط أن

يعيدا إلى الصليبيّين جميع مملكة القدس والأراضي التي كانت بحوزة الصليبيّين قرب نهر الأردن، إلى جانب بعض القرى التي احتفظوا بملكيّتها في الجبال، ومقابل ذلك توجّب على الصليبيّين أن يعطوهم كلّ المساعدات التي بإمكانهم في قتال سلطان مصر، وتمّت الموافقة على شروط هذه المعاهدة من قبل الفريقَين، وشرع الصليبيّون يأخذون أماكن استقرارهم في المدينة المقدّسة، بينما بقي جيشهم في غزّة برفقة جيش السلطانَين المتقدّمَي الذكر لمناوشة سلطان مصر ومضايقته، وبعدما انخرطوا في هذا العمل لبعض الوقت وصل بطريرك القدس من بلاد ما وراء البحر، وبعد استراحته جسديًّا لبعض الوقت، حرّكه الشوق لزيارة ضريح ربّنا، وانطلق ليقوم بذلك الحجّ، حيث كنّا أيضًا برفقته، وبعدما وفينا بنذر حجّنا، سمعنا في المدينة المقدّسة بأنّ حشدًا لا عدد له من الجنس المتوحش والعنيد والذين يُعرفون باسم الخوارزميّة قد قام، بناءً على استدعاء سلطان مصر وأوامره، باحتلال جميع المنطقة الموجودة في الجزء الأقصى من أراضينا المجاورة للقدس، وتغطية وجهها، وقد جعلوا كلّ نفس حيّة طعمًا للموت بالنار وبالسيف.

وجرى عقد مؤتمر حول هذه المسألة من قِبل الصليبيّين الذين كانوا يعيشون في القدس، وبما أنّه لم يكن بمقدورهم مقاومة هؤلاء الناس، ترتّب بشكل عقلانيّ بأن يقوم جميع سكّان القدس من كلا الجنسَين ومن كلّ عمر بالزحف تحت حراسة كوكبة من الفرسان إلى يافا، بحكم أنّها كانت مكانًا أمينًا للالتجاء إليه، وفي تلك الليلة نفسها، وبعدما أنهينا مداولاتنا، اقتدنا قومنا بحذر إلى خارج المدينة، وسرنا ونحن مطمئنّين نصف المسافة، حيث أظهر المعيق الأكثر تدميرًا لنا نفسه، وذلك بسبب تدخّل الشيطان الذي هو عدوّنا الماكر القديم، وقد رفع القوم المتقدّم ذكرهم على أسوار المدينة بعض الأعلام التي تركها الفارّون خلفهم، حتّى يمكنهم بتلك الوساطة إعادة الغافلين، بمنحهم الاعتقاد بأنّ الصليبيّين

الذين بقوا، قد هزموا أعداءهم، وبادر بعض أتباعنا من الصليبيّين بالإسراع خلفنا لإرجاعنا، وبعثوا الطمأنينة بنفوسنا بملامح مشرقة، وأعلنوا بأنّ أعلام الصليبيّين التي يعرفونها معرفةً جيّدةً قد رُفعت فوق أسوار القدس، وذلك بمثابة علامة على أنّهم هزموا الأعداء، وهم بذلك قد خُدعوا، وخدعونا معهم أيضًا، وبناءً عليه عدنا ونحن مسرورين واثقين إلى المدينة المقدّسة، ظانّين أنّنا سوف نسكن هناك بأمان، وقام كثيرون انطلاقًا من مشاعر التقوى، وآخرون بأمل الاستحواذ على مواريثهم والاحتفاظ بها، بالاندفاع من دون حذر، فعادوا إلى المدينة نفسها أو إلى أرباضها، وسعينا نحن – على كلّ حال – لثنيهم عن هذا كلّه، خائفين من خيانة من هؤلاء القوم الغادرين، ولذلك تخلّينا عنهم وغادرناهم، وحدث بعد أمد وجيز من مغادرتنا أن قدم هؤلاء الخونة بقوّات كبيرة، وطوّقوا الصليبيّين في المدينة المقدّسة، وحملوا عليهم حملات عنيفةً يوميًّا، مع الحيلولة بينهم وبين الدخول إلى المدينة أو الخروج منها بكلّ وسيلة من الوسائل، وأنزلوا بهم البلاء بمختلف الطرق، وبسبب هذه الهجمات والجوع والأسى، وصلوا إلى حالة اليأس، واتّفقوا جميعًا على تعريض أنفسهم لحظوظ مخاطر الموت على أيدي العدوّ، وبناءً عليه غادروا المدينة أثناء الليل، وارتحلوا وساروا فوق الطرقات في المناطق المهجورة من الجبال، حتّى وصلوا أخيرًا إلى ممرّ ضيّق، وهناك وقعوا في كمين للعدوّ، الذي طوّقهم من جميع الجهات، وهاجمهم بالسيوف والنشّاب والحجارة وغير ذلك من الأسلحة، وقتلهم، ومزّقهم، وقطّع إلى أشلاء حوالي سبعة آلاف من الرجال والنساء، وذلك وفقًا لأصحّ الإحصائيّات، حتّى أنّ دم هؤلاء المؤمنين قد جرى على جوانب الجبال مثل الماء، وذلك كما رأيته وأنا حزين، وأخذوا الشباب والعذراوات معهم إلى الأسر، وعادوا إلى المدينة المقدّسة، حيث قطعوا أعناق الراهبات والرجال المسنّين الضعفاء الذين كانوا غير قادرين على تحمّل متاعب الرحلة والفرار، وذبحوهم

وكأنّهم أغنام كان من المقرّر ذبحها، وجاء ذلك بعدما هربوا إلى كنيسة الضريح المقدّس، وإلى الجمجمة، وهو المكان الذي تكرّس بدم ربّنا، وهكذا اقترفوا في هذا المعبد المقدّس جريمةً لم تشهد أعين الناس مثيلًا لها منذ بداية الدنيا.

وبعد مرور بعض الوقت، وبما أنّ وحشيّة هذه الجريمة الكبرى التي لا يمكن التهاون نحوها أثارت المشاعر الدينيّة لدى جميع الصليبيّين، ودفعتهم إلى الانتقام من الإهانات التي ألحقت بخالقهم، ولذلك جرى الاتّفاق الإجماعيّ بأنّه يتوجّب علينا جميعًا - بعد طلب المساعدة من السماء - إعداد أنفسنا وتنظيمها، للاشتباك بمعركة مع هؤلاء القوم الخونة، وبناءً عليه هاجمناهم، وقاتلناهم من دون استراحة من الصباح الباكر حتّى انتهاء النهار عندما حال الظلام بيننا وبين التمييز بين قومنا وبين أعدائنا، وقد سقطت أعداد كبيرة من جانبنا، كانت أربعة أضعاف ما قتل من أعدائنا، فهذا ما أمكن معرفته بعد القتال.

وفي اليوم التالي (عيد القدّيس لوقا الإنجيليّ) كان فرسان الداوية والإسبتاريّة قد وجدوا أنفسهم قد استردّوا شيئًا من قوّتهم، فاستمدّوا العون من علّيّين، مع جميع الرهبان الآخرين الذين كرّسوا أنفسهم لهذه الحرب، وأوقفوا طاقاتهم عليها، واحتشد جميع الصليبيّين في الأرض المقدّسة، بناءً على دعوة وإعلان من البطريرك، وتحت قيادته، واشتبكوا بمعركة هي الأكثر دمويّةً مع الخوارزميّة المتقدّم ذكرهم، وخمسة آلاف فارس مسلم آخرين كانوا الآن يقاتلون تحت قيادة سلطان مصر، وذلك بعد انضمامهم مؤخّرًا إلى هؤلاء الخوارزميّة، وجرى قتال حادّ من على الطرفَين، ولم يكن بإمكاننا تجنّبهم، لأنّه كان هناك جيشًا قويًا وكبيرًا على جانبَينا، وكنّا أخيرًا غير قادرين على الصمود في وجه مثل تلك الحشود، لأنّ قوّاتٍ جديدةً غير متعبة من الأعداء تابعت التدفّق علينا، ذلك أنّهم

كانوا عشرة أضعاف تعدادنا، وكنّا منهكين وجرحى، وما برحنا نشعر بتأثير المعركة التي وقعت مؤخّرًا، ولذلك كنّا مرغمين على الفرار تاركين لهم ساحة المعركة، مع نصر دمويّ وغالٍ جدًّا، لأنّ أعدادًا كبيرةً سقطت من على جانبهم، كانت أكثر ممّا سقط منّ على جانبنا، وقد سوعدنا كثيرًا من قبله، الذي هو حافظ للأرواح، حتّى أنه لم ينجُ مئة بالفرار، لكن طوال ما كنّا قادرين على الصمود، شجّعنا بعضنا وواسينا بعضنا بعضًا في المسيح، وقاتلنا بدون تعب وبشجاعة، ممّا أدهش أعداءنا، حتّى وقعنا أخيرًا بالأسر، وهو ما حاولنا أن نتجنّبه، بأن نقتل، ولذلك قال العدوّ، فيما بعد، وهو مندهش، إلى أسراه: «أنتم عن طواعية ألقيتم بأنفسكم في طريق الموت، فلماذا كان ذلك؟»، وعلى هذا أجاب الأسرى قائلين: «كنّا نفضّل بالحريّ أن نموت في المعركة، ذلك أنّنا بموت أجسادنا نحصل على التمجيد لأرواحنا، وذلك بدلًا من أن نفرّ بدناءة، فمثل هؤلاء الناس، هم بالحقيقة، يُخاف منهم كثيرًا»، وسحقت في المعركة المذكورة قدرة الصليبيّين، وكانت أعداد الذين قُتلوا من على الجانبَين لا تُحصى، وجرى قتل مقدّمي الداوية والإسبتاريّة، وكذلك مقدّمي الطوائف الأخرى، مع فرسانهم وأتباعهم، أمّا وولتر كونت بريين Brienne، واللورد دي مونت فورت، والذين قاتلوا تحت لواء البطريرك، فقد جرى تمزيقهم إلى أشلاء، ونجا من الداوية ثمانية عشر فقط، وستّة عشر من الإسبتاريّة، وكانوا فيما بعد آسفين، لأنّهم أنقذوا أنفسهم. وداعًا.

### رسالة مبكية

إلى الآباء المبجّلين في المسيح، وإلى جميع أصدقائنا: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الأديرة، والأساقفة الآخرين في إنكلترا وفرنسا، وإلى الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، يتمنّى لكم روبرت، الذي هو بنعمة

الربّ بطريرك الكنيسة المقدّسة في القدس، والنائب للكرسيّ الرسوليّ، وهنري رئيس أساقفة الناصر وج. J، الأسقف المنتخب لقيسارية، و ر. R أسقف عكا، وأسقف صيدا، والراهب وليم أوف روكفورت Rochefort، نائب مقدّم بيت فرسان الداوية، ورهبان البيت نفسه، وهـ. H، رئيس رهبان ضريح ربّنا، وراعي دير القدّيس صموئيل لطائفة رهبان البريمونستريت Premonstrate، ورعاة الأديرة: ب. B راعي دير جبل الزيتون، وج. J راعي دير هيكل ربّنا، وب. P راعي دير جبل الطور، و ر.R راعي دير جبل صهيون، الصحّة والنجاح وفقًا لرغباتكم:

قدمت حدّة الحيوانات الشرسة من مناطق الشرق، ووجّهت مسارها نحو منطقة القدس، التي مع أنّها اعتادت في أوقات كثيرة أن تتعرّض للمضايقات بطرق متنوّعة من قبل المسلمين المحيطين بها، قد تمتّعت بالآونة الأخيرة بشيء من التنفّس بحرّيّة، لأنّ أعداءها القريبين قد أخلدوا إلى الراحة، ومع ذلك فإنّ ذنوب المسيحيّين قد أثارت شعبًا غير معروف، حتّى يقدم على تدميرهم، وقد جلب السيف المنتقم وسلّطه عليهم من بعيد، نعم لقد هزّ غضب التتار ورعبهم جميع منطقة الشرق، بوساطة المصائب المضاعفة والمرعبة، فقد اضطهدوا الناس سواءً، ولم يميّزوا بين مسيحيّ وغير مسيحيّ، بل أخذوا أسلابهم من أقصى البقاع، حتّى من الذين هم أنفسهم قد عاشوا على افتراس الشعب المسيحيّ، فبعدما نهب ودمّر هؤلاء التتار المذكورون جميع بلاد فارس، وشنّوا حربًا بروح فاسدة، واصطادوا أولئك الخوارزميّة المتوحّشين، وسحبوهم من جحورهم، طردوهم من مقاطعاتهم، ولم يمتلك هؤلاء الخوارزميّة مكانًا يسكنون به، ولم يتمكنوا من الحصول على ملاذ آمن بين أيّ من المسلمين، بسبب شرورهم، وقد تلقّوا العون فقط من سلطان مصر، ذلك المتعقّب للإيمان المسيحيّ، وهو وإن رفض منحهم مكانًا يلتجؤون إليه في أراضيه، عرض عليهم وقدّم إليهم ما هو ملك للآخرين، واستدعاهم

ووجّه الدعوة إليهم ذلك المسلم، للسكنى في أرض الميعاد، التي وعد بها الذي هو في عليّين، وأعطاها إلى الذين آمنوا به، وبناءً عليه، قدموا، وهم معتمدين على عون السلطان المذكور، مع زوجاتهم وأسرهم، وعدّة آلاف من الفرسان المسلّحين، ودخلوا إلى ميراث الربّ، الذي قالوا بأنّ سلطان مصر قد منحهم إيّاه، وكان وصولهم مفاجئًا، ولم يكن متوقّعًا لا من قِبَلنا ولا من قِبل الناس المجاورين لنا، لذلك لم يتمكنوا من إنذارنا للاحتراز ضدّهم، وقد دخلوا إلى منطقة القدس من خلال مقاطعتَي صفد وطبريّة، ومع أنّنا استخدمنا كلّ حيطة ويقظة لإبداع وسائل من أجل إرجاع الأرض المقدّسة إلى سالف عهدها من السلام والهدوء، الذي اضطرب بقدوم هؤلاء الأعداء الجدد، مع ذلك لم تكن إمكانات الصليبيّين كافيةً للقيام بواجب طردهم، وإثر هذا استحوذ الخوارزميّة الذين تقدّم ذكرهم على المنطقة كلّها الممتدّة من طور الفرسان على مقربة من القدس حتّى غزّة، وقمنا بناءً عليه، واعتمادًا على نصيحة الجميع ورغبتهم، بالتعاون مع مقدّمي بيتي الرهبان، أي فرسان الداوية، وفرسان إسبتاريّة القدّيس يوحنّا، ومدير فرسان التيوتون للقدّيسة مريم، ومدير المملكة، فتوجّهنا بالدعاء إلى مساعدة جميع الصليبيّين، وسلطانَي دمشق وحمص اللذين كانا آنذاك يربطهما معنا معاهدة سلام، واللذين كانا معاديَين ومبغضَين للخوارزميّة، واللذين كانا ملتزمَين، وفقًا لشروط المعاهدة، بالدفاع عن الأراضي التي هي بين أيدي الصليبيّين ضدّ المسلمين الآخرين، لأنّنا اعتقدنا أنّهم أنذروا بوصول أولئك الخوارزميّة المذكورين، وهم وإن وعدونا بإخلاص وأقسموا على أن يقدّموا العون إلينا، تأخّروا كثيرًا بتقديم أيّ نجدة إلينا، وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيّون متردّدون حول القتال ضدّ هؤلاء الخوارزميّة، لأنّ أعدادهم كانت قليلةً جدًّا مقارنةً بأعدائهم، غالبًا ما هاجم هؤلاء الخوارزميّة مدينة القدس، التي لم تكن محميّةً بحواجز دفاعيّة على الإطلاق، وبناءً عليه

فإنّ الصليبيّين الذين كانوا في المدينة، وكانوا يخافون من وحشيّة هؤلاء «الكفّار»، احتشدوا حتّى بلغ عددهم أكثر من ستّة آلاف رجل، ووثوقًا منهم بالهدنة التي كانت معمولةً بينهم وبين سلطان الكرك، ومسلمي المناطق الجبليّة، تركوا عددًا قليلًا في المدينة وانطلقوا خلال هذه المناطق الجبليّة مع أسرهم، وجميع مقتنياتهم، للدخول إلى أراضي الصليبيّين، لكنّ المسلمين في تلك المناطق انقضّوا عليهم وهاجموهم، ووضعوا بعضهم طعمةً للسيف من دون رحمة، واعتقلوا آخرين، وعهدوا بهم إلى أسر لا أمل فيه، وعرّضوا الصليبيّين من الجنسَين حتّى الراهبات للبيع إلى المسلمين الآخرين، وتمكّن بعضهم – على كلّ حال – من النجاة بالنزول إلى سهل ا ِملة، ووقتها انقضّ الخوارزميّة عليهم، واقترفوا مذبحةً هائلةً بينهم، إلى حدّ أنّ الذين نجوا من ذلك الحشد الكبير، لم يتجاوز عددهم الثلاثماية، وكان هؤلاء بلا حياة تقريبًا، ثمّ دخل أولئك المتوحّشون التعساء المتقدّم ذكرهم إلى مدينة القدس، وكانت الآن شبه خالية من الناس، وقتلوا جميع الصليبيّين الذي بقوا هناك، حتّى أمام ضريح ربّنا نفسه، وفي الكنيسة التي هربوا إليها للالتجاء، لا بل حتّى أنّهم قطعوا رؤوس الكهنة الذين كانوا يؤدّون القدّاسات عند المذبح، وكانوا يردّدون بين أنفسهم: «دعونا هنا نصبّ دماء هؤلاء الناس الصليبيّين، وذلك حيث شربوا الخمرة تشريفًا لربّهم، الذي يقولون بأنّه عُلّق هنا على الصليب»، وبالإضافة إلى هذا نحن نخبركم بما هو أكثر إيلامًا وحزنًا، حيث إنّهم وضعوا أيديهم الملوّثة، على ضريح قيامة ربّنا، ولوّثوه بطرق كثيرة، ولقد انتزعوا تقريبًا ألواح الرخام التي كانت موضوعةً من حوله، ولطّخوا بكلّ وسيلة من الإهانات التي كانت بإمكانهم، جبل [أكرا] الجمجمة، حيث جرى صلب المسيح، والذي فعلوه بالمدينة هو ما لستُ بقادر على التعبير عنه، وانتزعوا أعمدة الضريح المقدّس التي وُضعت أمام ضريح ربّنا بمثابة زينة، وتحدّيًا للمسيحيّين أرسلوهم إلى

ضريح محمّد [صلّى الله عليه وآله وسلّم] بمثابة علامة على النصر، ولكي يزيدوا من إهانة الصليبيّين خرقوا حرمة قبور الملوك السعداء [للصليبيّين] التي كانت موضوعةً في الكنيسة نفسها، وفرّقوا عظامهم وبعثروها في كلّ اتّجاه، وبالنسبة لجبل صهيون المبجّل، فقد خرقوا حرمته، ولطّخوا بأشياء غير معقولة، وغير مناسبة لذكرها، هيكل الربّ، وكنيسة وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المباركة، وفعلوا مثل ذلك بكنيسة بيت لحم، وموضع ولادة ربّنا، وبذلك فاقوا بشرورهم جميع المسلمين الآخرين، الذين مع أنّهم غالبًا ما هاجموا الأراضي الصليبيّة، دومًا أبدوا بعض الاحترام إلى هذه الأماكن المقدّسة، هذا ولم يكن هؤلاء الخوارزميّة المذكورون قانعين بكلّ هذا، وكانوا يستهدفون الاستيلاء على جميع المنطقة التابعة للصليبيّين وتدميرها كلّيًّا، وقد استثير الصليبيّون بسبب هذه التجاوزات والأضرار، وباتوا غير قادرين على تحمّل مثل هذه الشرور مدّةً أطول، التي هي شرور كافية لإثارة كلّ حزن وأسًى في قلب كلّ تابع غيور للإيمان الكاثوليكيّ، لذلك قرّروا بموافقة عامّة العمل على توحيد قوى السلطانَين المتقدّمَي الذكر مع قوّات الصليبيّين، وبناءً عليه، بدأ الجيش الصليبيّ في اليوم الرابع من تشرين أوّل بالزحف ضدّهم من ميناء عكا، وسار خلال قيساريّة والمناطق الساحليّة الأخرى.

وعلم الخوارزميّة وقتها باقترابنا، ولذلك تراجعوا خلال مناطق متعدّدة، ونصبوا معسكرهم أخيرا أمام عكّا، وانتظروا هناك النجدات التي كان سلطان مصر - الذي هو رأس ومقدّم الدنس - على وشك إرسالها إليهم، وعندما التحق بهم حشد كبير أرسله السلطان المذكور، وصل إليهم الجيش الصليبيّ مع السلطانَين المتقدّمي الذكر، وكان ذلك عشيّة عيد القدّيس لوقا، فيومها وجدناهم أمام غزّة مع حشد لا يُحصى، وكانت فرقهم معبّأةً للقتال، وبناءً عليه جرى ترتيب جيشنا من قبل المقدّمين وفق النظام الموائم لمهاجمة الأعداء وقتالهم، ثمّ قام البطاركة

والأساقفة الآخرون بتحليلهم من ذنوبهم بموجب سلطان الربّ القدير والكرسيّ الرسوليّ، وأعطى الجميع شارات، وأظهروا علامات على ندم مخلص بوساطة تدفّق الدموع، فهم عدّوا موت الجسد أمرًا لا قيمة له، وكانوا يأملون بنيل الجزاء الأبديّ، واعتقدوا جميعًا: أن تموت من أجل المسيح هو أن تعيش؛ لأنّه لا بدّ من حدوث مصيبة جسديّة لنا بسبب ذنوبنا، يتوجّب أن نعتقد أنّ الذي هو في علّيّين، الذي يبحث في القلوب، ويعرف جميع الأسرار، سوف يكون مسرورًا بالحصول على الأرواح بدلًا من نيل الأجساد.

ثمّ إنّنا اشتبكنا بعد ذلك مع العدوّ، ووقتها لحقت الغلبة بالمسلمين الذين كانوا معنا من قبل العدوّ، وهربوا جميعًا، وكانت أعداد منهم قد قتلت أو وقعت بالأسر، وهكذا تُرك الصليبيّون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أنّ الخوارزميّة والمصريّين انقضّوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيّون بحكم كونهم أبطال الربّ، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكيّ، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام إخوانًا، وأظهروا مقاومةً شجاعةً لهم، وانصاعوا - وأنا أكتبُ ذلك بأسف - أمام النصر الذي ناله أعداؤهم، والذين نجوا من بين جميع فرسان الداوية، ومن فرسان إسبتاريّة القدّيس يوحنّا، ومن فرسان التيوتون للقدّيسة مريم: فقط ثلاثة وثلاثون من الداوية، وستّة وعشرون من الإسبتاريّة، وثلاثة فقط من رهبان فرسان التيوتون، هؤلاء فقط الذين نجوا، أمّا البقيّة فهم إمّا قد قُتلوا، أو جُعلوا أسرى، وذلك بالإضافة إلى مذبحة هائلة ألّمت برماة القسيّ العقّارة، وكذلك بالنسبة للجنود الرجّالة.

وفيما يتعلّق برئيس أساقفة صور، وأسقف اللد، وراعي دير القدّيسة مريم في شعفاط ومقدّم الداوية، ومدير التيوتون للقدّيسة مريم، وعدد آخر من الرهبان والكهنة، بما أنّهم لم يظهروا بيننا، نحن في شكوك عظيمة

حولهم، لا ندري أسقطوا في المعركة، أم أنّهم ما زالوا قيد الأسر، فنحن غير قادرين على تأكيد الحقيقة حولهم، أمّا مقدّم الإسبتاريّة، والكونت وولت ردي بيريين، فقد حُملا مع عدد كبير آخر أسرى إلى القاهرة، وأمّا بالنسبة لي أنا البطريرك، الذي بسبب ذنوبي وقعت جميع هذه المصائب، فقد عُددت من قِبل الربّ أنّني غير جدير بالشهادة، ولذلك نجوتُ، وأنا نصف ميت، وتمكّنتُ من اللجوء إلى عسقلان مع النبلاء، وقسطلان عكا فيليب دي مونتفورت، والفرسان، والعساكر الرجّالة، الذين نجوا من المعركة، ومع أنّه ليس هناك راحة بين مثل هذا العدد الكبير من المصائب والخسائر التي ألّمت بنا، ذلك أنّنا خسرنا كلّ شيء في المعركة المتقدّمة الذكر، مع ذلك إنّ الذي كان بإمكاننا فعله في حالة الطوارئ الحاليّة فعلناه، فقد قمنا بإرسال رسائل ورسلًا إلى الملك المشهور لقبرص، وإلى أمير أنطاكية، ورجوناهما بحرارة وحثثناهما في حالة الضرورة الملحّة هذه، أن يُرسلا فرسانًا وعساكر من أجل حماية الأرض المقدّسة، لكنّنا لا نعرف بعد ما الذي عازمان على فعله في هذه القضيّة.

ثمّ إنّنا عدنا إلى عكّا، واتّخذنا مقامنا في تلك المدينة التي وجدناها، وكذلك وجدنا جميع المنطقة على طول الساحل، مليئةً بالحزن والنحيب، وبمختلف أنواع التعاسات التي لا نهاية لها، ولم يكن هناك بيت أو روح حيّة لم تكن تبكي واحدًا من الموتى قريبًا لها، ومع أنّ الحزن من أجل الماضي كان كبيرًا وقاسيًا، إنّ الخوف من المستقبل استولى على الجميع، لأنّ جميع المنطقة التي تمّ نيلها بسيوف الصليبيّين، هي الآن خالية من جميع بني البشر، ومن جميع المساعدات الأرضيّة، والحماية، وقوّة المدافعين قد نزلت إلى لا شيء، ودمّرت، لأنّ هناك فقط عددًا قليلًا من الأحياء، ومع أنّ هؤلاء قد انحدروا إلى حافّة الموت، ما من شيء كما يبدو قد بقي، بل يتوجّب أن يسقط كلّ المتبقّي في أيدي أعداء الصليب، وفق رغباتهم، ذلك أنّهم تقدّموا إلى درجة عالية من الصلف والوقاحة،

حتّى إنّهم زحفوا فنصبوا مخيّمهم، الذي امتدّ فوق مساحة ميلين في السهل القريب من مدينة عكا، ثمّ إنّهم الآن يركضون بشكل وحشيّ، وهم أحرار، حيث ليس هناك من يعترضهم أو يتصدّى لهم، في جميع المنطقة بالطول والعرض، وذلك حتّى منطقتَي الناصرة وصفد، وهم قد استحوذوا على المنطقة، وشرعوا يتقاسمونها فيما بينهم، وكأنّها كانت منطقتهم، وقد عيّنوا رسلًا ووكلاء في جميع قرى وبلدات الصليبيّين، ويتسلّمون الموارد والجزية من رجال المقاطعات ومن بقيّة السكّان، وهو ما كانوا من قبل يدفعونه إلى الصليبيّين، وقد أصبح رجال المقاطعات هؤلاء الآن أعداءً للصليبيّين وعصاةً ضدّهم، ومرتبطين متحالفين مع الخوارزميّة.

وهكذا فإنّ جميع كنائس القدس، وكذلك جميع الأراضي الصليبيّة، ليس لديها الآن أراض تتجاوز بعض الأماكن الحصينة القليلة، التي يجدون مصاعب جمّةً كبيرةً في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضًا بأنّ المصريّين الذين هم الآن عند غزّة سوف يقدمون قريبًا بأعداد كبيرة جدًّا إلى عكا، للاتّحاد مع الخوارزميّة في حصار المدينة، وتلقّينا أيضًا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني رسائل مع رسل من القسطلان مع الإسبتاريّة الذين يشكلون الحامية في قلعة عسقلان، يعلنون لنا بأنّ الجيش الإسلاميّ القادم من مصر قد ألقى الحصار على تلك القلعة، وأنّ المسلمين قد طوّقوها، ولقد التمسوا منّا أن نرسل إليهم مساعدات سريعةً ومؤنًا، وأن يكون ذلك منّا ومن الجماعة الصليبيّة.

وفي سبيل أن تثيرك تقواك للإشفاق على دماء الأرض المقدّسة، لأنّ هذا العبء يقع على أكتاف الجميع بشكلٍ عامّ، رأينا من الصواب إخباركم عن أوضاع قضيّة المسيح، وبتواضعٍ نرجوكم وبالصلوات والتقوى الخالصة نلتمس منكم، أن تطلبوا الرحمة من العليّ الأعلى

لصالح تلك الأرض، في سبيل أنّ الذي كرّس تلك الأرض بدمه، في سبيل خلاص جميع الناس، أن يتطلّع إلى تلك الأرض برحمته، وأن يمدّ يده لمساعدتها وحمايتها، وقدّم أيضًا أيّها الأب الأعظم محبّةً ما تمتلك من نصيحة ومساعدة في هذه القضيّة، حتّى تحصل من ذلك لنفسك على المكافأة في السماء، وبالنسبة إليكم يمكنكم أن تكونوا متأكّدين تمامًا، أنّه ما لم تقدّم مساعدة إلى الأرض المقدّسة في العبور المقبل لشهر آذار، من يد العليّ الأعلى، وبوساطة نجدات من القوّات الصليبيّة، إنّ الدّمار والتخريب المحيق بها الآن لا يمكن النجاة منه، وبما أنّنا نحتاج إلى وقت طويل حتّى نبيّن الضروريّات الأخرى التي نحتاجها، وأوضاع الأرض المقدّسة بشكل عامّ في رسالة، أرسلنا إليكم الأب المبجّل أسقف بيروت وآرنولف Arnulph، وهو راهب من طائفة رهبان الدومينيكان، وهما سوف يحكيا إلى جماعتكم الحقيقة كلّها كاملةً وبصدق، ونحن بتواضع نرجوكم جميعًا الإصغاء إلى الرسولَين المتقدّم ذكرهما، وأن تعاملاهما بكرم، لأنّهما عرّضا نفسَيهما لمخاطر عظيمة لصالح كنيسة الربّ بقيامهما برحلتهما في الشتاء.

صدر في عكّا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، من عام ألف ومئتين وأربع وأربعين لتجسيد ربّنا. [انتهى نصّ الرسالة]

ووضع على النسخة الأصليّة من هذه الرسالة البليغة اثنَي عشر ختمًا. وأوجز متّى باريس خبر ما حدث، حيث اعتمد على تقارير أخرى بقوله:

وكان سبب هذه الفاجعة المحزنة، التي ورد ذكرها أعلاه، والتي وقعت أوّلًا في مدينة القدس هو ما يلي: عندما قام الخوارزميّة بهجومهم المفاجئ على البطريرك، وعلى سكّان المدينة هرب البطريرك المذكور، مع أسر أهل المدينة بكلّ سرعة إلى يافا، للالتجاء هناك، وقام الخوارزميّة المَكَرَة في سبيل إعادة الفارّين، واصطيادهم لقتلهم، برفع أعلام الصليبيّين – الذين كانوا قد هربوا فجأةً – فوق شرفات أسوار

المدينة، ونتيجةً لهذا، فإنّ بعض الصليبيّين الذين كانوا متخفّين خارج المدينة، تركوا أماكن تخفّيهم، وامتطوا خيولًا سريعةً، ولحقوا ببني جلدتهم الصليبيّين، بموجب عواطف روح الأخوّة، ودعوهم للعودة، وأعلنوا بأنّ رفاقهم الذين بقوا في المدينة، قد انتصروا بسعادة على أعدائهم، ورفعوا أعلامهم بسرور فوق الأسوار، وبناءً عليه عادوا، لكن عندما حملوا أنفسهم مع شعور بالأمان ودخلوا إلى المدينة أو إلى أحوازها، كان القوم المتقدّم ذكرهم مسلّحين حتّى أسنانهم، وكانوا مستعدّين من قبل، ولذلك انقضّوا على الصليبيّين الفارّين، وقتلوهم جميعًا بحدّ السيف، ثمّ قام قومنا الذين بقوا سالمين ولم يتعرّضوا للأذى في المدن والقلاع الأخرى، فحشدوا جيشًا كبيرًا، وقرّروا بالإجماع طلب الانتقام لدماء إخوانهم، وأن يكون انتقامهم من أعدائهم دمويًّا وبأيدٍ ثقيلة، وأنشبوا معهم القتال، لكنّهم سحقوا، كما هو واضح من رسالة الإمبراطور المكتوبة أعلاه، وهكذا كان نصيب الأكثريّة القتل، وكانوا قلّةً الذين جُرحوا والذين نجوا بالفرار، بعدما تركوا أعداءهم يتفاخرون بالنصر الدمويّ الذي نالوه عليهم، وذلك حسبما اعترف الأعداء أنفسهم بأفواههم، بعد المعركة، التي استمرّت من الصباح الباكر حتّى وضع حلول ظلام الليل نهايةً لها، لأنّه لم يعد بمقدور أيّ من الفئتين تمييز الأخرى.

وذكر متّى أنّ الرسالة الثالثة حملها إلى أوروبا ولران Waleran أسقف بيروت مع راهب من طائفة الدومينيكان، وكان الهدف منها إطلاع ملكي إنكلترا وفرنسا على ما حدث، وإثارة شعوب أوروبا[١٢]، وجاءت ردّات فعل هنري الثاني ملك إنكلترا فاترةً متردّدةً، لكنّ لويس التاسع ملك فرنسا اتّخذ قراره بالتوجّه نحو الشرق، فقاد ما يُعرف باسم الحملة الصليبيّة السابعة التي قصدت مصر، ووصلت إلى دمياط في عام ١٢٤٩م.

(١٢) تاريخ متّى باريس، ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٤٧، الصفحات ٦١٨ إلى ٦٢٩، والصفحات ٦٥٨ إلى ٦٦٦.

وعلى الرغم من أهمّيّة حملة لويس، التي عُرفت باسم الحملة السابعة، والتي عدّت آخر الحملات الصليبيّة الكبرى، يعنينا منها ما عرضه الصالح أيّوب على لويس وتعلّق بالقدس وفلسطين، لأنّ الخوارزميّة بعد انتزاعهم للقدس، نشب خلاف بينهم وبين الصالح أيّوب، فهجروه وعملوا لصالح سواه[١٣]، لكنّ القدس بقيت بأيدي المسلمين، وأخذوا يعودون إليها للاستقرار، وتطوّر هذا الاستقرار وأعطى ثماره في العصر المملوكيّ، ولم ترجع القدس إلى الصليبيّين لأنّ عروض الصالح أيّوب رُفضت ومات هو أثناء ذلك، وشكّل حادث موته فعليًّا بداية النهاية للحكم الأيّوبيّ في مصر وقيام سلطنة المماليك، يضاف إلى هذا أنّ مشروعٍ لويس قد أخفق، ووقع هو بالأسر، وأخذت الأحداث مناحيَ جديدةً، ونختم حديثنا هنا، لكن بعد رواية بعض تفاصيل ما عرضه الصالح أيّوب على لويس التاسع.

بعد سقوط دمياط من دون مقاومة للصليبيّين، تشجّع لويس وقرّر الزحف نحو القاهرة، فأرسل السلطان إليه وفدًا ضمّ كبار رجال دولته، وقد عرض هذا الوفد عليه

التخلّي عن جميع الأرض المقدّسة، يعني أن تقول جميع مملكة القدس وزيادةً، وكذلك مبلغًا من المال، من ذهب وفضّة، مع هدايا أخرى مرغوبة، على شرط – على كلّ حال – وجوب إعادة الملك لويس لدمياط، مع جميع الأسرى الذين كانوا تحت سلطانه، وأنّه سوف يتسلّم جميع الأسرى أحرارًا، وأن يكون مسموحًا بقيام اتّصالات حرّة وتجارات بشكلٍ عامّ في بلدان كلّ منهما مع التمتّع بمنافع السلام، واللطف المتبادل.

وأشيع آنذاك في أوساط الصليبيّين

(١٣) المصدر نفسه، الصفحات ٨٥٩ و٨٧١ و٨٩٩ إلى ٩٠٣؛ مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحات ٣٥٨ إلى ٣٦١.

أنّ السلطان قد عزم مع عدد كبير من الأعيان المسلمين على التخلّي عن عقيدة محمّد [...] وأن يلتحقوا مخلصين بعقيدة المسيح، التي كانت من الواضح نظيفةً جدًّا ومشرّفةً، شريطة أن يسمح لهم بسلام بالاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم، لكنّ عروض السلام هذه رُفضت بعناد من قِبل النائب البابويّ طاعةً منه للأوامر البابويّة، الذي شجّعه على التصرّف هكذا، إذا ما حدث، وتقدّم المسلمون بمثل هذه العروض.

وقد تساور الإنسان الشكوك حول مسألة التخلّي عن الإسلام، لكنّ المثير للدهشة أنّ جوانفيل الذي كان برفقة الملك لويس، قد ذكر أنّه بعدما استولى المماليك على السلطة، والملك ليس أسيرًا لديهم، عرضوا عليه عرش القاهرة[١٤].

(١٤) جين جوانفيل، **حياة القدّيس لويس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٣٦، الصفحات ٦٨ إلى ١٥٠؛ **تاريخ متّى باريس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٤٧، الصفحات ١١٢٩ إلى ١١٦٤؛ **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحات ٣٣٣ إلى ٣٦٧؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٧٧٢ إلى ٧٨٥؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحات ٣٧٥ إلى ٣٨٣؛ **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب**، مصدر سابق، الصفحات ٣٧٨ إلى ٣٨٢؛ **الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة** (مع الذيل)، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٣٦١ إلى ٣٦٨.

# القدس: إطلالة على التاريخ والواقع المعاصر

د. زهير جلّول[1]

## التاريخ والسمات الحضاريّة

تُعدّ القدس ظاهرةً حضاريّةً فذّةً، تنفرد فيها دون سواها من مدن العالم، فهي واحدة من أقدم وأقدس المدن على ظهر الأرض، رغم كلّ ما حلّ بها من حروب ونكبات أدّت إلى هدم المدينة وإعادة بنائها اثنتَي عشرة مرّةً في التاريخ[2]. ومن الغريب أنّها كانت تخرج من كلّ محنة أعظم وأكبر من سائر أسلافها، وكانت تُعرف بمدينة السلام، أو مدينة إله السلام الكنعانيّة، وهي منذ أن قامت، قبل نحو خمسة آلاف سنة، وحتّى اليوم محطّ أنظار البشريّة[3]. وتوجّهت إليها الهجرات الساميّة من الجزيرة العربيّة، وكذا بنو إسرائيل، وهي مهد المسيحيّة وإليها كان إسراء النبيّ الكريم ومنها عروجه (ص).

لقد ورد في **التوراة والأسفار العبريّة** اسم «أورشليم» التي تُلفظ بالعبريّة «يروشاليم» أكثر من ٦٨٠ مرّةً، وتُطلِق **التوراة** على المدينة أسماء أخرى. فـ**الأسفار العبريّة** تعرّفها على أنّها مدينة مليك صادق المعاصر لإبراهيم الخليل (ع)[4]. وفي عصر القضاة كانت أورشليم ما تزال مدينةً وثنيّةً[5]؛

---

(١) باحث لبنانيّ.

(٢) صلاح بحيري، **جغرافيّة الأردن** (عمان: مطبعة الشرق ومكتبتها، ١٩٧٣)، الصفحتان ٢٢٨ و٢٢٩.

(٣) مصطفى مراد الدبّاغ، **بلادنا فلسطين** (بيروت: ١٩٧٥)، الجزء ٩، القسم ٢ «في بيت المقدس»، الصفحة ٥.

(٤) **سفر التكوين**، ١٤: ١٨.

(٥) **سفر القضاة**، ١٩: ١١.

لأنّ الإسرائيليّين كانوا قد أخفقوا في محاولتهم الأولى لفتحها[٦]، وفي آخر الأمر أخذها داود النبيّ من يد اليبوسيّين[٧ ٨]، وسمّى قلعتها مدينة داود[٩]، ثمّ عزّزها، وجعلها عاصمةً سياسيّةً لمملكته، ثمّ نقل إليها تابوت العهد[١٠]، وأتى النبيّ سليمان بن داود ليكمل عمل أبيه، فشيّد الهيكل وكرّسه رسميًّا[١١]، وهكذا حُدّدت الوجهة الدينيّة لتلك المدينة.

إذًا، شغلت أورشليم التي هي مدينة السلام مكانًا مميّزًا، باعتبارها ملكًا خاصًّا بسلالة داود، وهي ترمز واقعيًّا كعاصمة سياسيّة إلى وحدة «شعب الله»، وهي تُعدُّ عاصمةً دينيّةً، ومركزًا روحيًّا لإسرائيل، لأنّ «الله يسكن فيها» على جبل صهيون حيث اختاره مسكنًا له[١٢]، فأخذ المؤمنون يحجّون إليها باستمرار.

لم يستمرّ نفوذ اليهود على القدس أكثر من ٧٣ سنة[١٣]، ثمّ حصل الانشقاق بعد موت سليمان (ع) وقسّمت المملكة إلى مملكتَين، ودبّ الضعف بهما حتّى جاء نبوخذ نصّر البابليّ، واستولي على القدس سنة ٥٨٦ق.م. فدمّر الهيكل، ودمّر المدينة، ونقل سكانها إلى بابل، وأصبحت القدس مستعمرةً بابليّةً[١٤]. وبعد أن استولى الفرس على

(٦) **سفر القضاة**، ١: ٢١.

(٧) اليبوسيّون من بطون العرب الأوائل في الجزيرة العربيّة؛ يحيى الفرحان، **قصّة مدينة القدس**، ضمن سلسلة **المدن الفلسطينيّة** (فلسطين: المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الثقافة بمنظّمة التحرير الفلسطينيّة)، الصفحة ١٦.

(٨) **سفر صموئيل الثاني**، ٥: ٦ وما بعدها.

(٩) **سفر صموئيل الثاني**، ٥: ٩.

(١٠) **سفر صموئيل الثاني**، الإصحاح ٦.

(١١) **سفر الملوك الأوّل**، الإصحاح ٦ و٧ و٨.

(١٢) **مزمور** ٧٨: ٦٨؛ **مزمور** ١٣٢: ١٣ إلى ١٨.

(١٣) **بلادنا فلسطين**، مصدر سابق، الصفحة ٣٨؛ وراجع، **سفر صموئيل الثاني**، ٤: ٥؛ وأيضًا، **سفر الملوك الأوّل**، ١١: ٤٢.

(١٤) تشير المراجع التاريخيّة إلى أنّ أورشليم سقطت بيد نبوخذ نصّر سنة ٥٩٧ ق.م. حين كان يهوياقيم ملكًا عليها، فسيق أسيرًا إلى بابل مع عدد كبير من الأسرى، ثمّ تسلّم الحكم عمّه ميتانا،

سوريا وفلسطين سمح الملك «قورش» سنة ٥٣٨ق.م. لمن أراد من الأسرى اليهود بالرجوع إلى «أورشليم»، وأمر بإعادة بناء الهيكل(١٥).

ظلّت البلاد تحت الحكم الفارسيّ إلى أن فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ق.م. وتأرجحت السيطرة على «أورشليم» في عهد خلفائه البطالسة والسلوقيّين حتّى قام الملك السلوقيّ أنطيوخوس الرابع، حوالي سنة ١٦٥ق.م.، بتدمير الهيكل، وأرغم اليهود على اعتناق الوثنيّة، فكانت نتيجة ذلك أن اندلعت ثورة «المكابيّين»، ونجحوا في تحقيق نوع من الحكم الذاتيّ من سنة ١٣٥ق.م. حتّى سنة ٧٦ق.م.

بعد فترة من الفوضى، استولى الرومان على سورية وفلسطين، ودخل القائد الرومانيّ بومبي أورشليم ونصّب هيرودوس الأدومي الذي اعتنق اليهوديّة ملكا على الجليل وبلاد «يهوذا». فظلّ يحكم باسم الرومان حتّى السنة الرابعة للميلاد، وفي عهد الإمبراطور الرومانيّ نيرون بدأت ثورة اليهود على الرومان، فقام القائد تيتوس سنة ٧٠م باحتلال أورشليم، ثمّ أحرق الهيكل وفتك باليهود، إلّا أنّهم ثاروا ثانيةً بقيادة باركوخبا سنة ١٣٢م، فأسرع الإمبراطور إيليا هادريانوس إلى إخماد ثورتهم سنة ١٣٥م، ودمّر «أورشليم» والهيكل سنة ١٣٦م، وأسّس مكانها مستعمرةً رومانيّةً حرّم على اليهود دخولها، وأطلق عليها اسم «مدينة إيليا». وفي عهد الإمبراطور قسطنطين، وبعد أن اعتنق المسيحيّة، أعاد إلى المدينة اسم أورشليم سنة ٣٣٠م، وجعلها مدينةً مسيحيّةً بيزنطيّةً، وانقطعت صلة اليهود بالمدينة والأرض وبالهيكل.

وفي القرن السابع الميلاديّ (الأوّل للهجرة النبويّة الشريفة)، خرجت

---

لكنّه ما لبث أن أعلن العصيان بتشجيع من المصريّين؛ انظر، محمّد أمهز، **محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم** (بيروت: ١٩٨٠)، الصفحتان ٣٣٨ و٣٣٩.

(١٥) المصدر نفسه، الصفحات ٣٣٨ و٣٣٩ و٣٤٩.

فلسطين كسائر بلاد الشام من حوزة الرومان، ودخلت في نطاق الدولة الإسلاميّة. وقد احتلّت مدينة بيت المقدس في الدعوة الإسلاميّة منذ البداية مكانًا هامًّا. فقد أشير إليها عدّة مرّات في **القرآن الكريم**[16]، وفي الحديث النبويّ الشريف[17]، وكانت قبلة المسلمين الأولى، وإليها كان إسراء النبيّ محمّد (ص)، ومنها كان عروجه. وبقيت القدس في يد المسلمين والعرب نحو ١٤ قرنًا متواصلةً (باستثناء الاحتلال الصليبيّ لها سنة ١٠٩٩م، وإخراجهم منها بعد معركة حطّين سنة ١١٨٧م؛ أي لفترة ٨٨ عامًا فقط)، ولم تُثر مشكلة الأماكن المقدّسة خلال سيادة المسلمين، إلّا في القرن التاسع عشر، نتيجة التدخّلات والأطماع الأجنبيّة.

ومع نهاية الحرب العالميّة الأولى قُضي على الحكم العثمانيّ الذي امتدّ على بيت المقدس نحو ٤٠٠ عام (١٥١٧ - ١٩١٧)، وأخذت الأحداث تتوالى بسرعة في النصف الثاني من عام ١٩١٧. ففي التاسع من شهر كانون الأوّل دخلت القوّات البريطانيّة مدينة القدس[18] لتمهّد الطريق بعد يومين لدخول الجنرال اللنبي قائد القوّات البريطانيّة العاصمة الفلسطينيّة[19]. وفي الفترة نفسها، كانت المفاوضات قائمةً على قدم وساق بين الساسة البريطانيّين وزعماء الحركة الصهيونيّة، حيث تمخّضت في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧ عن صدور «وعد بلفور» (نسبة إلى بلفور وزير خارجيّة بريطانيا آنذاك) والذي ينصّ على تأسيس وطن قوميّ للشعب اليهوديّ في فلسطين[20].

---

(١٦) سورة الإسراء، الآية ١.

(١٧) نصّ الحديث: «لا تُشَدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد الأقصى»؛ محمّد بن اسماعيل (البخاري)، **صحيح البخاري**، تحقيق محمّد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة ١ (دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ)، الجزء ٣، الصفحة ١٩.

(١٨) إميل الغوري، **فلسطين عبر ٦٠ عامًا** (بيروت: دار النهار، ١٩٧٢)، الصفحة ٢٥.

(١٩) عيسى السفري، **فلسطين العربيّة بين الانتداب والصهيونيّة** (يافا: ١٩٣٧)، الصفحتان ٢٧ و٢٨.

(٢٠) أحمد طربين، **فلسطين في خطط الصهيونيّة والاستعمار** (القاهرة: جامعة الدول العربيّة، معهد البحوث والدراسات التاريخيّة والجغرافيّة، ١٩٧٠)، المجلّد ١، الصفحة ١١٦.

بقيت القوّات البريطانيّة في فلسطين تعمل جاهدةً لتحقيق غاية اليهود بإقامة وطنهم القوميّ، ولم ترحل، في ١٤/٥/١٩٤٨، إلّا بعد أن ضمنت أنّ بذرة الوطن القوميّ اليهوديّ قد زرعت في أرض فلسطين، وما على اليهود إلّا أن يحيطوها بالجوّ الملائم، لتنمو وتكبر وتتوسّع. بقيت معظم الأماكن الإسلاميّة والمسيحيّة المقدّسة في القطاع العربيّ الذي يشمل المدينة المقدّسة القديمة حتّى حزيران سنة ١٩٦٧، حيث استولى الصهاينة عليه يوم الأربعاء في ٧ حزيران، وفي اليوم التالي؛ أي الخميس ٦/٨، تمّ احتلال كلّ الضفّة الغربيّة من نهر الأردن لتبدأ مرحلة جديدة لبيت المقدس، وهي مرحلة التصفية الحضاريّة والتهويد(٢١).

## مراحل الاحتلال الصهيونيّ للقدس

للقدس طابع مميّز وأهمّيّة خاصّة عند الجميع، ففي المؤتمر الصهيونيّ الأوّل سنة ١٨٩٧م، قال هرتزل: «إذا حصلنا يومًا على القدس، وكنت لا أزال حيًّا، وقادرًا على القيام بأيّ شيء، فسوف أزيل كلّ شيء ليس مقدّسًا لدى اليهود فيها، وسوف أدمّر الآثار التي مرّت عليها القرون». وقال بن غوريون: «لا معنى لفلسطين بدون القدس، ولا معنى للقدس بدون الهيكل». وعاد إيغال آلون إثر حرب سنة ١٩٦٧ إلى التأكيد «بأنّ على العالم أن يقرّ أنّ المدينة [يقصد القدس] في النهاية قد انتقلت إلى يد الأمّة التي أنشأتها، وحوّلتها إلى مدينة مقدّسة»(٢٢). ويدّعي تيدي كوليك، الذي أصبح رئيسًا لبلديّة القدس في ظلّ الكيان الصهيونيّ، أنّ «القدس

(٢١) **قصّة مدينة القدس**، مصدر سابق، الصفحة ٢٨.

(٢٢) تصريحات قام بجمعها السيّد روحي الخطيب في مقالة بعنوان «تهويد القدس في عشر سنوات»، في: **مجلّة شؤون فلسطينيّة**، العدد ٤١/ ٤٢، كانون الأوّل ١٩٧٥، الصفحة ٩٥.

لم تصبح أبدًا مركزًا لعلم الدين الإسلاميّ»[٢٣]، ذلك للتقليل من أهمّيّتها على المستوى الإسلاميّ.

إنّ للقدس مكانةً فريدةً في نظر اليهود تدعم أطماع الصهيونيّة فيها. فالمدينة التاريخيّة في عصرها الذهبيّ (حكم داوود وسليمان) ترمز إلى وحدتهم واستقلالهم، وتذكّرهم بالماضي السياسيّ القديم. والهيكل حتّى بعد هدمه عدّة مرّات وحرث أرضه يرمز إلى التجمّع اليهوديّ، والعودة من بعد الشتات قرونًا طويلةً. وهذا تمويه لأهداف الصهيونيّة الحقيقيّة، فهي إنّما تستعمل الدين اليهوديّ، والمشاعر الدينيّة بين اليهود، وغير اليهود من الغربيّين، استعمالًا واعيًا لأثره الإعلاميّ والنفسيّ العميق. وبتركيزها على القدس، وإثارة المشاعر الدينيّة إنّما تشحذ همم يهود العالم لدعمها بقاءَ القدس عاصمةً[٢٤] لتصبح قلب الدولة/ الإمبراطوريّة الصهيونيّة الموسّعة في المستقبل، والتي تمتدّ حدودها من النيل إلى الفرات، وربّما أكثر من ذلك[٢٥].

لقد سارت خطّة احتلال القدس ضمن مخطّط عامّ لاحتلال فلسطين، وإعلان قيام الكيان الصهيونيّ بشكل ناجح، فبدأ بصدور تصريح «بلفور» ودخول الجيش البريطانيّ إلى القدس، كما مرّ، في أواخر سنة ١٩١٧، ومن ثمّ دخول الصهاينة متستّرين بحماية القوّات البريطانية. وقد حاولت سلطة الانتداب خلال تواجدها في فلسطين فصل منطقة القدس، ووضعها تحت الانتداب البريطانيّ في مشروع «بيل» سنة ١٩٣٧ للتقسيم[٢٦]، وحاولت اللجنة الإنجلو-أميركيّة سنة ١٩٤٦

(٢٣) كامل العسلي، **الطابع الإسلاميّ الدوليّ للعلماء الذين أمّوا القدس وعاشوا فيها** (القدس الشريف)، الصفحة ٤٠.

(٢٤) وليد الخالدي، **حائط المبكى** (بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، ١٩٦٤)، المقدّمة.

(٢٥) **سفر التكوين**، ١٥: ١٨.

(٢٦) نجيب صدقة، **قضيّة فلسطين** (بيروت: دار الكتاب، ١٩٤٦)، الصفحتان ٢٠٠ و٢٠١.

استكمال تنفيذ الخطّة[٢٧]، وكذلك «موريسون» من خلال مشروعه للتقسيم سنة ١٩٤٦، والذي يقضي بتهجير مئة ألف يهوديّ إلى القطاع اليهوديّ من فلسطين[٢٨]، وفي قرار الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة الصادر بتاريخ ١٩٤٧/١١/٢٩، والقاضي بتقسيم فلسطين تحت شعار رعاية المصالح المشتركة، وصيانة الأماكن المقدّسة، فقد اعتبرت منطقة القدس والمنطقة التي تحيط بها (بما فيها بيت لحم) وحدةً قائمةً بذاتها، تخضع لنظام دوليّ خاصّ[٢٩].

لم يتحقّق نظام التدويل الذي تبنّته الأمم المتّحدة، لأنّ الصراع المسلّح احتدم بين العرب والصهاينة حتّى قبل خروج القوّات المسلّحة البريطانيّة. وكانت القدس الهدف الأوّل في المخطّط الصهيونيّ لاحتلال فلسطين، وكانت مذابح دير ياسين إحدى الخطوات نحو احتلال مدينة القدس. ورغم الكمّيّات الكبيرة من الأسلحة التي خلّفها الاحتلال البريطانيّ للمنظمات الصهيونيّة، وتسهيل عمل أعضائها، لجهة تسليم المراكز «الإستراتيجيّة» للسيطرة على الأراضي، ومن خلال تكتيك الانسحاب الذي كان دائمًا لصالح اليهود، ومعاديًا للمجاهدين المسلمين والعرب[٣٠]، فقد استطاع أهل القدس المدنيّون بالتعاون مع «الجهاد المقدّس» و«قوّات جيش الإنقاذ» وقسم من القوّات الأردنيّة الصمود في وجه القوّات المعتدية، وكادوا يسجّلون نصرًا لولا إعلان الهدنة الأولى التي مكنت الجانب الصهيونيّ من تعديل موقفه ليقوم بهجوم جديد. وجاءت الهدنة الثانية، فأوقفت القتال، وأعقبها قرار مجلس الأمن في ١٩٤٨/١١/٤، الذي قضى بسحب القوّات المسلّحة وإقامة خطوط

(٢٧) ملفّ وثائق فلسطين ٦٣٧- ١٩٤٩، الصفحة ٧٦٥ وما بعدها.

(٢٨) جامعة الدول العربيّة، الوثائق الرئيسيّة في قضيّة فلسطين، الصفحة ٤٠٠ وما بعدها.

(٢٩) جورج طعمة، قرارات الأمم المتّحدة بشأن فلسطين والصراع العربيّ الإسرائيليّ ١٩٤٧ – ١٩٧٤ (بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة)، الصفحة ٤.

(٣٠) زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث (بيروت: دار النهضة، ١٩٧٥)، الصفحة ٢٢٤.

هدنة، ثمّ كرّست اتّفاقيّة وقف إطلاق النار بتاريخ ١٩٤٨/١١/٣٠، واتّفاقيّة الهدنة في ١٩٤٩/٤/٣، تقسيمًا واقعيًا للمدينة. وبتاريخ ١٩٤٩/١٢/١١، بادرت إسرائيل إلى مفاجأة العالم بإعلانها القدس عاصمةً لها، بقرار من البرلمان الإسرائيليّ «الكنيست»، تمشّيًا منها مع سياسة الأمر الواقع، ونقلت إليها مقرّ حكومتها من تل أبيب، ثمّ افتتح مقرّ «الكنيست» الجديد فيها بتاريخ ١٩٦٦/٨/٣٠. وتكريسًا للمدينة كعاصمة للكيان الصهيونيّ، سعت إسرائيل إلى أن يقدّم السفراء الأجانب أوراق اعتمادهم في القدس «الإسرائيليّة» (قدّم سفيرا الولايات المتّحدة الأميركيّة وبريطانيا أوراق اعتمادهما فيها في تشرين الأوّل ١٩٥٤)، كما طلبت نقل السفارات إليها. وقد أصرّت إسرائيل في خطوة عدوانيّة جديدة على إقامة العرض العسكريّ فيها بمناسبة عيد استقلال دولة إسرائيل[٣١]. وقد شهدت الفترة ما بين ١٩٤٨ وحتّى ١٩٦٧ عددًا من الإجراءات ضدّ المدينة المقدّسة سكّانًا وأرضًا منها:

١. إصدار قانون أموال الغائبين في ١٩٥٠/٣/٣١، خُوّلت بموجبه سلطات الاحتلال سلطة وضع اليد على جميع الأموال المنقولة، وغير المنقولة التي كان يملكها العرب في المناطق المحتلّة وغادروها بعد التقسيم.

٢. منع اللاجئين الفلسطينيّين من حقّ العودة رغم قرار الجمعيّة العامّة في الأمم المتّحدة (رقم ١٩٤ فقرة ٣ بتاريخ ١٩٤٨/١٢/١١) الذي يتضمّن مبدأ حقّ العودة، وردّ الممتلكات أو التعويض عنها، وقد بلغ عدد اللاجئين من عرب القدس خارج بلدهم حوالي سبعين ألفًا.

(٣١) «تهويد القدس في عشر سنوات»، مصدر سابق، ص ٩٥.

٣. فتح باب الهجرة اليهوديّة، الأمر الذي أدّى إلى رفع عدد السكّان اليهود في القدس، من حوالي مئة ألف، عام ١٩٤٨، إلى حوالي مئتي ألف، في حزيران ١٩٦٧[٣٢].

وفي الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧، شنّت إسرائيل هجومًا واسعًا على الجبهات العربيّة المجاورة، فاحتلّت الضفّة الغربيّة من الأردن، ومنطقة غزّة، وسيناء، والمرتفعات السوريّة، والجزء الثاني من مدينة القدس، ونظرًا للأهمّيّة التي تشغلها القدس في التفكير الصهيونيّ سار العمل بخطوات أسرع، فسعت سلطة الاحتلال إلى خلق حقائق جديدة لجعل التحوّل في المدينة أمرًا واقعًا.

### إجراءات تهويد القدس

عمدت السلطات الإسرائيليّة في القدس بعد «توحيدها» إلى تنفيذ المخطّط الذي رسم من قبل لتعزيز الكيان الصهيونيّ في المدينة المقدّسة، وجعلها عاصمةً لإسرائيل، وذلك من خلال ضمّ القدس لإسرائيل واقعيًّا، وتفريغها من سكّانها العرب. فعمدت بحجّة «توحيد القدس» إلى هدم السور الجديد الذي كان يفصل بين شطرَي القدس (أقيم السور بعد سنة ١٩٤٨، لوقف عمليّات القنص). وعُيّن تيدي كوليك رئيسًا لبلديّة القدس، ونقلت مقرّات وزارات الدولة من تل أبيب إلى القدس. وتابعت السلطات الإسرائيليّة إجراءاتها التي تستهدف تصفية السكّان تدريجيًّا ومصادرة أراضيها، وعقاراتهم، وطمس حضارة أجدادهم، والاعتداء على مقدّساتهم، وإذابة اقتصادهم، وتغيير معالم البناء الذي اشتهرت به مدينتهم، واستبدال كلّ ذلك بالإنسان الإسرائيليّ و«الحضارة»

(٣٢) **بلادنا فلسطين**، مصدر سابق، الصفحات ١٨١ و١٨٦ و١٨٧.

والمقدّسات الإسرائيليّة، وباختصار عمدت إلى تهويد المدينة المقدّسة بأقصى سرعة[٣٣].

ويمكن رصد التحوّل الذي أحدثته السلطات الإسرائيليّة في القدس في النواحي التالية:

## أوّلًا: ضمّ القدس إلى إسرائيل[٣٤]

١. القرارات الإداريّة:

أصدرت سلطات الاحتلال سلسلةً من القرارات هدفها ضمّ القدس العربيّة إلى الحكم الإسرائيليّ المباشر، علمًا بأنّ هذه القرارات تتعارض مع المواثيق الدوليّة التي تحظّر على السلطة المحتلّة تغيير القوانين، أو فرض قوانين جديدة. ففي ١٩٦٧/٦/٢٨، أصدر سكرتير حكومة إسرائيل أمرًا أطلق عليه «أمر القانون والنظام رقم واحد لسنة ١٩٦٧»، أعلن فيه تنظيم أمانة مدينة القدس (أي البلديّة) التي تقع تحت الحكم الأردنيّ، ويقطنها حوالي مئة ألف عربيّ أضحوا بموجب التنظيم الجديد خاضعين للسيادة الإسرائيليّة المباشرة، وأصبحت جميع الأملاك والأراضي التي تقع ضمن حدود القدس الموسّعة جزءًا من أراضي «دولة إسرائيل».

(٣٣) في حديث جريدة **الجيروشاليم بوست** عدد ١٩٧١/٣/٩، ذكر وزير الإسكان الإسرائيليّ أنّ الصهيونيّة لها الاعتبار الأوّل في القدس وليس الدوافع الروحيّة. فادّعاء الأرض – على حدّ قوله – لا يكفي للحصول على الملكيّة، ولا بدّ من التحرّك بأقصى سرعة ممكنة، وتخطيط القدس كفيل بجعلها معرضًا صهيونيًّا.

(٣٤) اعتمد في هذا الموضوع بصورة رئيسيّة على بحثَين:

١. «تهويد القدس في عشر سنوات»، مصدر سابق.

٢. فهد الجابر، **إجراءات تهويد القدس**.

وعلى نشرة **اللجنة الملكيّة لشؤون القرن**، عمان، والتي تعتمد في أخبارها على الصحف العربيّة الصادرة في القدس (**الفجر**، **الشعب**، **القدس**).

وبتاريخ ١٩٦٧/٦/٢٩، أصدر جيش الدفاع الإسرائيليّ أمرًا يقضي بحلّ مجلس بلدية القدس العربيّ المنتخب، وبطرد رئيس المجلس السيّد روحي الخطيب من عمله، وإلحاق موظّفي وعمّال البلديّة بأمانة القسم المحتلّ من المدينة برئاسة تيدي كوليك، وألحقت جميع ممتلكات وسجلّات البلديّة بالدوائر الإسرائيليّة. ولإحكام عمليّة الضمّ الإداريّ والسياسيّ، ألزمت سلطات الاحتلال الداخلين والخارجين إلى مدينة القدس الحصول على تصريح عسكريّ. وهذا يعني عزل القدس عمّا يجاورها ممّا يلحق الضرر بالمدينة والضواحي.

٢. القضاء:

أغلقت السلطات الإسرائيليّة جميع المحاكم النظاميّة في المدينة، وفصلت القضاء النظاميّ القائم في القدس عن شؤون الضفّة الغربيّة، وألحقَ كليًّا بالقضاء الإسرائيليّ، وأدمجت محاكم البلديّة والصلح في القدس بالمحاكم الإسرائيليّة المماثلة، ونقلت إليها جميع سجلّاتها وممتلكاتها، وطُلب من القضاة والموظّفين العرب تقديم طلبات للالتحاق بوزارة العدل الإسرائيليّة، وإلّا اعتبروا مفصولين. ثمّ عمدت سلطة الاحتلال إلى نفي رئيس المحكمة الشرعيّة الإسلاميّة، وأوعزت إلى الجهات المختصّة بعدم تنفيذ أيّ حكم أو قرار للمحاكم الإسلاميّة حتّى تلك المتعلّقة بالأحوال الشخصيّة من زواج، أو إرث، أو وصاية، أو غيرها، الأمر الذي خلق التعقيدات المتتالية للقضاة الشرعيّين وللأوقاف وللسكّان.

٣. قضيّة التعليم في القدس العربيّة:

بعد عمليّة الاستيلاء على القدس العربيّة بادرت السلطات الإسرائيليّة إلى وضع اليد على جميع المدارس الحكوميّة، وألغت برامج التعليم والكتب المدرسيّة التي كانت معتمدة، واستبدلتها ببرامج التعليم المطبّقة على

المدارس العربيّة في المناطق التي احتلّتها عام ١٩٤٨، وألغت مكتب التفتيش العربيّ وطلبت من جميع أفراد الهيئة التعليميّة الالتحاق بأجهزة التعليم الإسرائيليّة. وإزاء رفض الجهاز التعليميّ التعاون، رغم الإغراءات والضغوط التي مارسها الصهاينة، تمّ فتح المدارس الحكوميّة بالقوّة مع كادر من المعلّمين يفتقر إلى الشهادات التعليميّة والخبرة. كلّ ذلك أدّى إلى كوارث أصابت التعليم، فانخفضت النسبة المئويّة للناجحين والناجحات حتّى وصل عدد طلّاب المدرسة الرشيديّة، وكانت من أكبر المدارس الثانويّة، إلى أربعة عشر طالبًا من أصل ثمانمئة طالب، وأصبح عدد المعلّمين أربعة من أصل أربعين، الأمر الذي جعل قضيّة التعليم في القدس العربيّة الشغل الشاغل لعرب القدس والضفّة الغربيّة.

٤. قانون التنظيمات القانونيّة والإداريّة سنة ١٩٦٨:

بتاريخ ١٩٦٨/٨/٢٣، أصدرت السلطات اليهوديّة قانون التنظيمات القانونيّة والإداريّة، وغرضه إضفاء الطابع الصهيونيّ على مختلف أوجه النشاط في مدينة القدس. فقد فرض على كلّ أصحاب المهن والحرف، والأطبّاء والمهندسين والمحامين، ومدقّقي الحسابات، وأصحاب الامتياز أو العلاقة التجاريّة (ماركة مسجّلة) أو الاختراع، والشركات الخاصّة والعاديّة والمحدودة، والجمعيّات التعاونيّة، فرض عليهم وجوب إعادة التسجيل لدى السلطات الإسرائيليّة بموجب القوانين والأنظمة الإسرائيليّة، والحصول على رخص جديدة في خلال مدّة تنتهي بتاريخ ١٩٦٩/٢/٢٢، وإذا لم تحصل هذه الفئات التي يشملها القانون على الترخيص الجديد يمنع أفرادها من تعاطي أعمالهم، ويعني ذلك الحيلولة دون كسب موارد رزقهم التي يعيشون منها.

٥. الانتخابات البلديّة:

دعت سلطات الاحتلال الإسرائيليّة عرب القدس إلى الاشتراك بالانتخابات البلديّة التي حُدّدت بتاريخ ١٩٦٩/١٠/٢٨، وكان هدف إسرائيل من وراء نجاح الانتخابات في القدس الاعتراف الشرعيّ بضمّ القدس العربيّة أمام الرأي العامّ العالميّ، وانتزاع هذا الاعتراف من أهالي القدس عن طريق مشاركتهم في الانتخابات. ورغم كلّ الجهود التي بُذلت لم تستطع سلطات الاحتلال استمالة أيّ عربيّ لترشيح نفسه لعضويّة البلديّة، ولم يتقدّم للتصويت إلّا ١٠٪ من سكان القدس المسجّلين في اللوائح الانتخابيّة، فباءت بالفشل، ولم تحظَ انتخابات سنة ١٩٧٣ أو سنة ١٩٧٧ بحظّ أوفر من المحاولات السابقة.

٦. الإجراءات التي تناولت المرافق والخدمات العامّة:

أ. نقلت سلطات الاحتلال جميع «موتورات» ومضخّات المياه التابعة لبلديّة القدس، وربطت عرب القدس بشبكة المياه الخاصّة ببلديّة الاحتلال.

ب. وضعت شركة كهرباء محافظة القدس تحت رعاية بلديّة الاحتلال.

ت. في آذار سنة ١٩٧٣، أصدرت السلطات الإسرائيليّة أوامرها بنقل مركز الخدمات الصحّيّة العربيّة من القدس إلى رام الله، وهذا الإجراء يهدف إلى إفساح المجال أمام «الهستدروت» (اتّحاد العمل الإسرائيليّ) ومؤسّساته الصحّيّة لإرغام العرب على التعامل معه في الخدمات الصحّيّة. وهو أيضًا حلقة من حلقات فكّ ارتباط القدس بالمحيط العربيّ المجاور.

ث. بتاريخ ١٦/٥/١٩٧٣ أغلقت السلطات المحتلّة دائرة الشؤون الاجتماعيّة في القدس وأحلّت محلّها مكتبًا إسرائيليًّا مقرّه القدس للإشراف على جميع الجمعيّات الخيريّة القائمة في المدينة بما فيها مستشفى المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، ومستشفى وملجأ العجزة الأرثوذكسيّ، ومستشفى الهلال الأحمر، ودار الطفل العربيّ، والمعهد المهنيّ للجنة اليتيم العربيّ، وغيرها.

**ثانيًا: إخلاء القدس من سكّانها العرب**

بدأ الصراع الديموغرافيّ بين العرب واليهود – سواء في فلسطين عامّةً أو في القدس – يحتدم منذ بداية الانتداب/الاحتلال البريطانيّ. إلّا أنّه بلغ ذروته في فترتين: الأولى في الأربعينات من هذا القرن، والتي شهدت إنشاء الكيان الصهيونيّ على أرض فلسطين، عام ١٩٤٨، وتجزئة مدينة القدس إلى قطاعَين عربيّ ويهوديّ؛ والثانية فقد بدأت عقب حرب سنة ١٩٦٧ مباشرةً، وتمخّض عنها ضمّ القطاع العربيّ من القدس إلى القطاع الصهيونيّ تمهيدًا لتصفيتها حضاريًّا وديموغرافيًّا ولتهويدها في فترة قصيرة.

ولعلّ أوّل ما يلفت النظر من خلال تتبّع تطوّر عدد سكّان المدينة المقدّسة هو عدم وجود حتّى أقلّيّة يهوديّة في المدينة خلال حقب طويلة من الزمن. ويبيّن الجدول التالي تطوّر عدد السكّان اليهود في القدس منذ القرن الحادي عشر وحتّى نهاية القرن السابع عشر:

| القرن/ السنة | عدد السكّان (عائلة/ نسمة) |
|---|---|
| الثاني عشر للميلاد | يهوديّ واحد |
| الثالث عشر للميلاد | عائلتان يهوديّتان |
| ١٤٨١م | نحو ٥٠٠ يهوديّ |
| ١٤٩١م | نحو ٧٠ عائلة |
| ١٥٧٢م | نحو ١١٥ يهوديًّا |

أمّا الجدول التالي، فيبيّن تطوّر عدد سكّان مدينة القدس في القرن السادس عشر للميلاد:

| السنة | ١٥٢٦م | ١٥٣٩م | ١٥٤٩م | ١٥٩٧م |
|---|---|---|---|---|
| عدد السكّان | ٢٨٠٧ | ٥٥١٢ | ٩١٣٥ | ٨٤٣١ |

نلاحظ من الجدولَين السابقَين أنّه حين كان عدد سكّان القدس أكثر من ٨٠٠٠ نسمة في أواخر القرن السادس عشر لم يكن في المدينة سوى ١١٥ يهوديًّا، بينما أصبح عدد سكّان اليهود في القدس عام ١٨٣١م نحو ٣٠٠٠ نسمة بسبب الهجرة غير الشرعيّة، وعدد السكّان العرب في الوقت نفسه نحو ٨٠٠٠ نسمة. ثمّ تزايد عدد اليهود في المدينة بعد أن سمح السلطان العثمانيّ، عام ١٨٥٥، لليهود بشراء الأرض ليرتفع مع نهاية القرن التاسع عشر إلى أكثر من ٣٠ ألف يهوديّ. في هذه الفترة تبلور الحيّ اليهوديّ في القدس خارج أسوار المدينة ليكون نقطة الارتكاز الأساسيّة للانقضاض منها على المدينة لاحقًا لتهويدها.

والجدول التالي[٣٥] يبيّن بوضوح تطوّر عدد سكّان القدس (عرب/ يهود) منذ ١٨٣١م، وحتّى عام ١٩٨٣م:

| السنة | | ١٨٣١م | ١٨٩٠م | ١٩٢٠م | ١٩٣١م | ١٩٤٥م | نهاية عام ١٩٤٧م | ١٩٦١م | ١٩٦٧م | ١٩٧٠م | ١٩٨٣م |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| السكّان | عرب | ٨٠٠٠ | ١٤٨٠٠ | ٣١٠٠٠ | ٣٩٢٢٩ | ٦٠٨٠٩ | ٦٥١٠٠ | ٦٠٤٨٨ | ٦٦٠٠٠ | ٨٥٠٠٠ | ١٢٢٥٠٠ |
| | يهود | ٣٠٠٠ | ٣٢٠٠ | ٣٠٠٠٠ | ٥١٢٢٢ | ٧٠٠٠٠ | ٩٩٤٠٠ | ١٦٠٦٣٠ | ٢٠٠٠٠٠ | ٢٢٩٠٠٠ | ٣٣٠٥٠٠ |

ويُتوقّع أن يصل عدد السكّان في القدس عام ١٩٩٢ إلى ٥٦٠٠٠٠ نسمة منها ١٥١٠٠٠ عربيّ و٤٠٩٠٠٠ يهوديّ[٣٦]. لقد اتّبعت السلطات المحتلّة سلسلة من الإجراءات المنظّمة لتغيير الوضع الديموغرافيّ في القدس لصالح اليهود، ومن هذه الإجراءات:

١. **الإرهاب:** وهو أولى الوسائل المباشرة التي استعملتها السلطات الصهيونيّة حين احتلّت القدس عام ١٩٦٧، وهي الأساليب نفسها التي لجأت إليها المنظّمات الإرهابيّة الصهيونيّة في دير ياسين وكفر قاسم وغيرها. فقد لجأت القوّات الإسرائيليّة إلى قصف المدينة ممّا أدّى إلى استشهاد ما يقارب ٣٠٠ مدنيّ بالإضافة إلى تدمير العقارات السكنيّة والتجاريّة، وهدم الكنائس والمساجد، والمدارس والمستشفيات، ثمّ نهب دور السكن والسيّارات بعد توقّف القتال[٣٧]. ثمّ فرضت منع التجوّل

---

(٣٥) المصادر:

١. **بلادنا فلسطين**، مصدر سابق، الصفحات ١٨١ و١٨٦ و١٨٧.

٢. عارف العارف، **تاريخ القدس** (القاهرة: ١٩٥١)، الصفحتان ١٩٢ و١٩٣.

٣. دائرة الإحصاءات العامّة، **التعداد العامّ الأوّل للسكّان والمساكن** (عمان: ١٩٦١)، الصفحة ١١.

(٣٦) **قصّة مدينة القدس**، مصدر سابق، الصفحة ٩٩.

(٣٧) وصف أحداث النهب والتخريب شاهد عيان لأحداث العدوان، هو قنصل الولايات المتّحدة الأميركيّة في مدينة القدس في كتابه:

E. M. Wilson, *Jerusalem, Key to peace* (Washington: The Middle East Institute,

وسيق المئات من المدنيّين إلى معتقلات مجهولة، وأُخضعوا للتعذيب الجسديّ والنفسيّ. وتسبّبت هذه الأعمال في نزوح حوالي ٥٠٠٠ شخص. وبعد ذلك عمدت السلطات المحتلّة إلى إجراء إحصاء عامّ لسكّان القدس في ١٩٦٧/٧/٢٥، سجّلت بموجبه أسماء الموجودين فيها، وأجبرتهم خلال ثلاثة أشهر على الحصول على «بطاقات هويّة إسرائيليّة»، واعتبرت بذلك أبناء القدس الذين هم في الخارج – بداعي العمل أو طلب العلم أو الزيارة أو النازحين بسبب الحرب – غائبين وحرمتهم من حقّ العودة.

**٢. أعمال التغيير الديموغرافيّ والعمرانيّ:** بعد حرب ١٩٦٧، وفي أقلّ من أسبوع أزيل من الوجود العربيّ في المدينة:

أ. حيّ المغاربة الملاصق للمسجد الأقصى، فهُدّم ١٣٥ منزلًا يسكنها نحو ٦٥٠ شخصًا.

ب. هُدم مسجدان في حيّ المغاربة أحدهما مسجد البراق الشريف.

ت. هُدم مصنع بلاستيك قرب حيّ الأرمن يعمل فيه مئتا عامل.

ث. هُدم ما يزيد على ٢٠٠ مخزن ومنزل في مناطق مختلفة من القدس.

ج. إزالة قرى كاملة من منطقة اللطرون، وهي قرى بيت نويا وعمواس ويالو، ومُنع أهلها من العودة إليها.

---

1930), pp. 90-116.

ح. هدم ونسف منازل أشخاص مشتبه بقيامهم بأعمال مقاومة أو بحجّة أنّ البناء بدون رخصة أو بحجّة مدّ شبكة لمياه المجاري.

٣. **الضغط الاقتصاديّ**: كان الضغط الاقتصاديّ أحد الأساليب غير المباشرة التي اتّبعتها السلطات الإسرائيليّة لترحيل السكّان، فقد اتّخذت عددًا من الإجراءات التي تستهدف تصفية الاقتصاد العربيّ وإذابته تدريجيًّا في بوتقة الاقتصاد الإسرائيليّ ومنها:

أ. أغلقت البنوك العربيّة القائمة آنذاك (العربيّ، القاهرة، عمان، العقاريّ، الأردنيّ، الأهليّ، وغيرها) وصادرت أموالها واستبدلت العملة الأردنيّة بالعملة الإسرائيليّة.

ب. فصلت القدس عن القرى والمدن المحيطة، فمنعت السلطات إدخال أيّ إنتاج زراعيّ أو صناعيّ منها إلى أسواق القدس، بينما أباحت إدخال جميع أنواع البضائع والمنتجات الإسرائيليّة إليها، ممّا أدّى إلى حرمان المنتج العربيّ المجاور من أسواق كانت تستهلك قسمًا كبيرًا من إنتاجه.

ت. تطبيق قانون أحكام التجارة الإسرائيليّ على التجّار العرب، حيث يفرض عليهم الحصول على رخصة تجاريّة إسرائيليّة وتسجيلها في السجلّ التجاريّ الإسرائيليّ وحصر الاستيراد بالموانئ والمطارات الإسرائيليّة.

ث. فرض ضرائب مرتفعة على العرب رغم الخسائر التي لحقت بهم بسبب الإجراءات السابقة، وأحيانًا تلجأ السلطات الإسرائيليّة، في إطار استيفائها للضرائب إلى

أساليب متعسّفة، من مصادرة محتويات بعض المتاجر والكماليّات في المنازل إلى ختم بعض المتاجر الأخرى بالشمع الأحمر. وأيّ اعتراض تعتبره السلطة تحدّيًا للأمن ممّا يؤدّي إلى الحجز أو الإبعاد.

ج. قامت السلطات الإسرائيليّة بعد عام ١٩٦٧ بإغلاق جميع فنادق المدينة التي تعتبر إحدى مصادر الدخل الرئيسيّة في اقتصادها، وبالمقابل منحت سلطات الاحتلال للتجّار اليهود رخصًا لفتح مكاتب سياحيّة ومحلّات تجاريّة للتحف الشرقيّة بهدف السيطرة على قطاع السياحة والخدمات في المدينة، ثمّ منعت سلطات الاحتلال ممثّلي المكاتب السياحيّة العربيّة من دخول مطار «اللد» لاستقبال الوفود السياحيّة بحجّة الأمن[٣٨].

ح. من خلال سياسة المنح والمنع التي اتّبعتها السلطات الإسرائيليّة، تمّ تصفية قطاع المواصلات والنقل في المدينة المقدّسة، ففي أيار ١٩٦٧، حصلت إحدى شركات النقل التعاونيّة الإسرائيليّة على إذن يسمح لها باحتلال نصف مواقف الباصات في المحطّة المركزيّة في القدس الشرقيّة، إضافةً إلى مكاتب جميع الباصات العربيّة، وبالمقابل مُنعت شركات الباصات العربيّة من ممارسة نشاطها السابق في النقل مع المناطق الأخرى في الضفة أو المناطق المحتلّة عام ١٩٤٨، وواجهت سيّارات الأجرة مصير شركات

(٣٨) سمير جريس، **القدس: المخطّطات الصهيونيّة، الاحتلال، التهويد** (بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، ١٩٨١)، الصفحات ١٥٦ إلى ١٥٨.

الباصات نفسه[٣٩].

لقد صرّح أبا إيبان (وزير الخارجيّة الإسرائيليّ السابق) بأنّ العلاقة الاقتصاديّة بين إسرائيل وعرب الأراضي المحتلّة يجب أن تكون مثل تلك التي تسود بين الولايات المتّحدة الأميركيّة وأميركا اللاتينيّة، أي علاقة المسيطِر والمسيطَر عليه، المتقدّم والمتخلّف، السيّد والعبد التابع، الغنيّ والفقير، وهي نموذج العلاقة التي تسود بين المستعمِر والمستعمَر والمعروفة منذ أيّام شركة الهند الشرقيّة. لقد خطّط الصهاينة ليبقى القلب الإسرائيليّ هو المتقدّم اقتصاديًّا وتقنيًّا ويمتلك عناصر الهيمنة والقوّة المنظّمة وصناعة القرارات[٤٠].

٤. **مصادرة الأملاك والأراضي:** بُعيد الاحتلال عام ١٩٦٧، بدأت السلطات الإسرائيليّة بمصادرة الأراضي تدريجيًّا، وأُعطي حقّ الأولويّة بالتنفيذ للأراضي غير المسكونة أو القليلة السكّان وذلك تجنّبًا لضمّ السكّان إلى إسرائيل، الأمر الذي لا تريده القيادة الإسرائيليّة.

فبموجب القرار الصادر بتاريخ ١٩٦٨/١/٨، تمّ استملاك ٣٣٤٥ دونمًا خارج أسوار القدس في الشمال، أضيف إليها، بتاريخ ١٩٧٢/٢/١، ما مساحته ١٧٠٠ دونم. وبتاريخ ١٩٦٨/٤/١٤، صدر قرار بضمّ ٢٠٠ دونم تشكّل مع المساحة الأولى طوقًا وحاجزًا بين القدس والشمال وجزء من الشرق، وفي التاريخ نفسه (١٩٦٨/٤/١٤) أعلن عن استملاك ٣٠٠ دونم تقع جنوبيّ القدس وذلك لتطويق المدينة، وبموجب القرار السابق نفسه تمت مصادرة ١١٦ دونمًا من الأراضي داخل السور (المعروفة بالبلدة القديمة) بالإضافة إلى مئة دونم صودرت

(٣٩) المصدر نفسه، الصفحة ١٥٧.

(٤٠) **قصّة مدينة القدس**، مصدر سابق، الصفحة ١١٣.

على امتداد سور المدينة، وتضمّ هذه المساحات داخل السور: ٥٩٥ عقارًا عربيًّا تحتوي على ١٠٤٨ شقّة سكن، و٤٣٧ محلًّا تجاريًّا وخمسة مساجد وأربع مدارس، كما تضم شارعًا تجاريًّا عريضًا يسمّى «باب السلسلة» ويقع على جانبيه عدد من العمارات الأثريّة التي بناها المماليك.

بتاريخ ١٩٦٩/٦/٢٠، أعلن الحاكم العسكريّ عن مصادرة ١٧ عقارًا عربيًّا منها ما هو ملاصق لسور الحرم الشريف، وتضمّ هذه الأبنية المصادَرة عمارةً تاريخيّةً أثريّةً اسمها «المدرسة التنكزيّة» كانت مركزًا للمحكمة الشرعيّة الإسلاميّة ويشغلها حاليًّا المعهد الإسلاميّ لإعداد الوعّاظ والمدرّسين الإسلاميّين، وتقع على المدخل الرئيسيّ للحرم الشريف.

بتاريخ ١٩٧٠/٨/٣٠، صدر أمر باستملاك ١١٦٨٠ دونمًا، قسم منها يقع ضمن أراضي القدس. عام ١٩٧٢، تمّت مصادرة ٥٠٠٠ دونم من أراضي قرى عناتا والعيزريّة شرق القدس. عام ١٩٧٤، أغلق الحاكم العسكريّ نحو ٧٠ ألف دونم بين القدس وأريحا لإنشاء المدينة الصناعيّة. في نيسان ١٩٧٥ أبلغ الحاكم العسكريّ للواء رام الله مخاتير قرى عناتا قرار السلطات بمصادرة ١٥٠٠ دونم لأغراض عسكريّة، وطلب من أصحابها عدم دخولها أو حصد محاصيلها، وما زالت السلطات الإسرائيليّة تتّبع الأسلوب نفسه حتّى الآن.

لقد رافق قرارات المصادرة واستملاك الأراضي العربيّة إجلاءً للسكّان عن منازلهم، وبالمقابل توطين المزيد من المهاجرين الجدد. فالبيوت جاهزة، وكذلك الخدمات الحياتيّة، وخطّة تهويد القدس سائرة على قدم وساق لتصبح العاصمة الحقيقيّة لدولة إسرائيل، وذلك بالإتيان بربع مليون مهاجر يهوديّ جديد إلى المدينة المقدّسة، هذه المدينة التي ستخضع لهندسة جديدة وضعت تخطيطها لجنة إسرائيليّة منذ حزيران

١٩٦٧ لإسكّان المزيد من اليهود. وشرعت إسرائيل في تنفيذ المخطّط المعماريّ الجديد للقدس تحت ستار أنّ هذا المخطّط قد أعدّته عبقريّات معماريّة دوليّة. وقد أثار هذا المشروع عواصف من الانتقادات العالميّة خاصّةً أنّ جملة ما يهدف إليه هو هدم قسم كبير من مساكن وعقارات المسلمين والعرب داخل السور بحجّة أنّ هذه الأماكن مكتظّة بالسكّان وغير صحّيّة وبحاجة لإعادة تخطيط، كما أنّه يستهدف قبل كلّ شيء تغيير طابع المدينة الدينيّ والتاريخيّ.

لقد نفّذت إسرائيل، رغم الاحتجاجات والشكاوى العربيّة، ورغم كلّ القرارات الدوليّة بإدانتها، برامجها «لتطوير» القدس داخل السور وخارجه، ومن هذه البرامج:

**أ. في داخل السور أو البلدة القديمة:**

أ.١. بدأ العمل بإنشاء حيّ جديد على أنقاض حيّ المغاربة الذي هدمته السلطات الإسرائيليّة ويهدف إلى إسكان نحو ٦٠٠ عائلة يهوديّة، وبالمقابل خُطّط للعرب مشروع هزيل لم يتمّ إنجازه وذلك لإسكانهم خارج حدود بلديّة القدس.

أ.٢. توسيع وتطوير الحيّ اليهوديّ في القدس لتسكنه أيضًا ٦٠٠ عائلة يهوديّة.

أ.٣. مشروع الحزام الأخضر حول السور القديم، وقد خُطّط له عام ١٩٧٠ لإخلاء السكّان العرب والأحياء الواقعة قرب السور تحت شعار تجميل المدينة، وتمّ افتتاح هذا المشروع بتاريخ ١٩٧٤/١١/١ بحضور تيدي

كوليك رئيس بلديّة القدس.

**ب. خارج أسوار القدس:**

بعد سنة ١٩٦٧ جرى تخطيط الأجزاء الجديدة من القدس التي تمّ احتلالها وفقًا لمبرّرات استراتيجيّة بحتة، وتمّ إنشاء عدد كبير من المستوطنات على رؤوس التلال والأودية التي يسهل الدفاع عنها. كلّ ذلك على أنقاض ما هُدّم من أحياء وقرى عربيّة، وعلى ما صودر أو اغتُصب منها في القدس أو حولها، ونذكر من هذه الأحياء:

ب.١. حيّ في منطقة الشيخ جرّاح في الجهة الشماليّة من مدينة القدس وهو نواة لإسكان ٣٠ ألف يهوديّ.

ب.٢. حيّ على جبل سكوبس شرقيّ منطقة الشيخ جرّاح، يهدف لإقامة ٣٠٠٠ وحدة سكنيّة.

ب.٣. حيّ على جبل الزيتون لإقامة نحو ٣٢ ألف مهاجر يهوديّ.

ب.٤. حيّ على أراضي قرية النبيّ صموئيل العربيّة التي هدّمت عام ١٩٧١ (واسمه العبريّ راموت)، ويبلغ عدد الوحدات المخطّط لإنشائها ١٠ آلاف وحدة. وتقوم الحكومة الإسرائيليّة ببناء مساكن لطلبة الجامعة العبريّة في منطقة النبيّ صموئيل وكذلك بناء مباني الإذاعة والتلفزيون لإنعاش المنطقة استيطانيًّا.

ب.٥. حيّ يقوم على أراضي قرية الرام العربيّة، وآخر

على أراضي جبل المكبّر جنوبيّ القدس، وآخر على أراضي قرية شرفات جنوبيّ القدس، وعلى أراضي جبل الزيتون، وحيّ يقوم على القسم الشرقيّ من أراضي بيت حنينا، وآخر قرب مطار القدس لإقامة منطقة صناعيّة، وآخر على أراضي قرية شعفاط.

ب.٦.لقد صرّح مدير الإسكان في منطقة القدس (آب سنة ١٩٧٦) أنّه قد شيّدت ١٢٨٤٠ وحدةً سكنيّةً في الأحياء الجديدة من القدس منذ عام ١٩٦٧، وأنّ ٧٢٢٠ وحدةً سكنيّةً هي في طور البناء، وأنه خلال ٧٦–٧٧ سيجري بناء ٢٨٠٠ وحدة سكنيّة أخرى. كما صرّح رئيس إدارة أراضي إسرائيل (تشرين أوّل ١٩٧٦) أنّ القدس والطرق المؤدّية إليها تأتي على رأس أولويّات التطوير في إسرائيل. وفي أواخر عام ١٩٧٥، كشف عن مشروع يتضمّن إقامة ثلاث مستوطنات، وعددًا من الأحياء حول القدس ترعاه وزارة الدفاع، ويهدف إلى إقامة سور من المستوطنات «يخنق» القدس ويستوعب ما بين ٢٥ إلى ٥٠ ألف نسمة.

إنّ النتائج المترتّبة على استمرار مشاريع الاستيطان والتخطيط الإسرائيليّين خطيرة، فهي تعني توقّف النموّ العربيّ والإسلاميّ في المدينة والضواحي، واستكمال الطوق حول المدينة المقدّسة، بحيث تصبح جميع منافذها ومداخلها محاطةً بتحصينات من المستوطنات الإسرائيليّة، وتُفصل بذلك القدس عن ضواحيها بمئات الأبنية والعمارات اليهوديّة الشاهقة. وفي حين تشهد المدينة نشاطًا متزايدًا في الإنشاءات الإسرائيليّة وما يتبعها من خدمات وتسهيلات للاستيطان، تتراجع حركة الإسكان

العربيّ أمام الضغوط والعراقيل التي تضعها السلطات المحتلّة لإجبار السكّان على الجلاء.

### ثالثًا: العبث بالممتلكات الثقافيّة وانتهاك المقدّسات الإسلاميّة والمسيحيّة

استكمالًا للخطّة التي أعدّتها إسرائيل للقضاء على الوضع الحاليّ للمدينة المقدّسة وإحكام السيطرة عليها، قامت بعدد من الانتهاكات للقيم الثقافيّة والتاريخيّة والدينيّة كانت تسير جنبًا إلى جنب مع استملاك العقارات والأراضي وخطط البناء والاستيطان، ولم ترعَ إسرائيل في ذلك العهود والاتّفاقيّات الدوليّة، ولا التقاليد المرعيّة في الحفاظ على مكانة القدس الدينيّة والتاريخيّة.

لقد حاولت سلطات الاحتلال أن تستعين بالحفريّات الأثريّة لتتّخذ منها وسيلةً تدعم بها ما تدّعيه من حقّ تاريخيّ في فلسطين عامّةً وفي القدس خاصّةً، وبالأخصّ ما هو «مهدّم» تحت «الأقصى». لقد حدّد علماء الآثار ورجال الدين اليهود في إسرائيل أهداف الحفريّات بما يلي:

١. الكشف الأثريّ على الحائطَين الجنوبيّ والغربيّ للحرم الشريف، وعلى امتداد طوله ٤٨٥ مترًا، توطئةً لكشف ما يسمّونه بحائط المبكى.

٢. هدم وإزالة جميع المباني الإسلاميّة الملاصقة للحائط من معاهد ومساجد وأسواق ومساكن قائمة.

٣. الاستيلاء بعدها على الحرم الشريف وإنشاء الهيكل الكبير[٤١].

---

(٤١) من مذكّرة قدّمها الأستاذ روحي الخطيب إلى لجنة المتخصّصين في الحفريّات التي أعدّتها إدارة

ثمّ قامت مديريّة الآثار الإسرائيليّة، بعد حرب ١٩٦٧، بإجراء حفريّات في أكثر من ٤٠ محلًا، وأبرز هذه الحفريّات هي التي أجراها بنيامين مازار عند الحائط الجنوبيّ لما يسمّى جبل الهيكل (المسجد الأقصى) باسم جمعيّة الاستكشاف الإسرائيليّة. وقد شملت الحفريّات الإسرائيليّة في القدس بعد ١٩٦٧ الأقسام التالية[٤٢]:

١. الحفريّات في الأقسام الملاصقة لأسوار الحرم الشريف في الجهتَين الجنوبيّة والغربيّة مبتدئةً من نقطة تقع في أسفل الحائط للمسجد الأقصى.

٢. حفريّات في الأراضي الوقفيّة الإسلاميّة الخالية من الأبنية، والممتدّة في الجهة الجنوبيّة لحائط المسجد الأقصى.

٣. حفريّات وزارة الأديان الإسرائيليّة في قوس ولسون باتّجاه أسفل الحرم الشريف.

٤. حفريّات في المنطقة الواقعة جنوب غرب حائط الحرم الشريف، وصلت إلى عمق ٣٥ مترًا، واشتملت على الدهاليز والأقبية الواقعة تحت عمارة المحكمة الشرعيّة الإسلاميّة.

٥. حفريّات في حارة الشريف بدأت عام ١٩٦٩، واستمرّت حتّى ١٩٧٣، تمّ خلالها حفر مساحات جديدة مبعثرة بين حائط البراق الشريف شرقًا وحيّ الأردن غربًا.

٦. حفريّات في بستان الأرمن بالقدس القديمة بالإضافة إلى حفريّات جبل صهيون منذ عام ١٩٧٠.

---

فلسطين – الأمانة العامّة للجامعة العربيّة سنة ١٩٧١.

(٤٢) «تهويد القدس في عشر سنوات»، مصدر سابق.

٧. الحفريّات التي قامت بها جماعة من المتديّنين اليهود في حزيران ١٩٦٧، بحثًا عن قبور يهوديّة قديمة في أسفل جبل الزيتون على طريق القدس رأس العمود.

وقامت معظم هذه الحفريّات في البلدة القديمة، وفي منطقة الحرم الشريف بوجه خاصّ، وهي الأهمّ في التقاليد الإسلاميّة والمسيحيّة واليهوديّة بالنسبة لأيّ موقع آخر في العالم. وجرت معظمها تحت ستار البحث عن ممرّات سهلة الوصول إلى حائط المبكى لتأكيد المزاعم اليهوديّة بوجود هيكل سليمان في تلك المنطقة، وتشغل منطقة الحرم الشريف، التي تشمل المسجد الأقصى وقبّة الصخرة، سدس مساحة القدس المسوّرة، وتعتبر، بما فيها من مساجد وقباب، وما يحيط بها من مآذن وأسوار، حرمًا إسلاميًّا مقدّسًا، وقد جاء ذلك واضحًا في تقرير لجنة «شو» زمن الانتداب عام ١٩٢٠.

لقد تعرّضت المقدّسات الإسلاميّة والمسيحيّة في القدس لاعتداءات كثيرة، فبالإضافة إلى ما تقدّم ذكره، قامت السلطات الإسرائيليّة باحتلال باب المغاربة، وهو أحد أبواب الحرم الشريف الملاصق للمسجد الأقصى من الغرب، وأقامت مركزًا عسكريًّا إسرائيليًّا فيه، وأباحت الدخول إليه من قبل جميع الزوّار الإسرائيليّين دون رقابة موظّفي الوقف الإسلاميّ. كما سمحت السلطات الإسرائيليّة بإقامة صلوات دينيّة يهوديّة في ساحات الحرم الشريف وأمام مداخل المسجدَين «الأقصى» و«الصخرة». أمّا أخطر ما تعرّض له الأقصى بعد الحفريّات الملاصقة له، فهو الحريق الذي شبّ فيه يوم ١٩٦٩/٨/٢١، وهو يعتبر عملًا سياسيًّا بالدرجة الأولى، وإن اتّخذ شكلًا دينيًّا، ولم يكن ضدّ مشاعر المسلمين والعرب فقط، بل ضدّ مشاعر أيّ إنسان يحترم مقدّساته وتراثه. لقد لاحظ المراقبون في القدس أنّ الدمار في المسجد يكاد يكون كاملًا، كما

لاحظوا أنّ الحريق نتج عن إشعال النار بفعل فاعل. وقد استمرّ الحريق أكثر من ٤ ساعات كاملة، وهبّ المسلمون إلى إخماد النيران القويّة في حين كانت مياه البلديّة لدى سلطات الاحتلال قد قُطعت في منطقة الحرم الشريف فور ظهور الحريق.

أمّا بالنسبة للمقدّسات المسيحيّة، فقد تعرّضت كنيسة القيامة، التي تعتبر أكبر وأقدم كنيسة مسيحيّة في القدس وفي العالم، خلال سنوات الاحتلال، إلى عدّة انتهاكات: فقد سُرق تاج السيّدة العذراء في أواخر سنة ١٩٦٧، من قِبَل بعض الإسرائيليّين ثمّ أعيد بعد سرقة جواهره الثمينة. وقام إسرائيليّ أميركيّ بتحطيم قناديل الزيت والشموع التي هي فوق القبر المقدّس في مدخل الكنيسة يوم ١٩٧١/٣/٢٤. وجرت محاولة سرقة إكليل مرصّع بالألماس قائم قرب صليب الجلجلة داخل كنيسة القيامة من قِبَل ثلاثة إسرائيليّين ليلًا بعد اعتدائهم على الراهب. وفي ١٩٧٤/١١/١٧، قام بعض المسلّحين باقتحام كنيسة القيامة، وضربوا الرهبان وسرقوا لوحةً مقدّسةً من الفضّة لها قيمة كبيرة، وقد برّأتهم المحكمة المركزيّة بالقدس. كما تعرّض دير الأقباط ليلة عيد الميلاد، بتاريخ ١٩٧٠/١٢/٢٥، إلى اعتداء على ممتلكاته ورهبانه من قبل البوليس الإسرائيليّ. وبتاريخ ١٩٧٣/٢/٦، أحرق بعض الإسرائيليّين المركز الدوليّ للكتاب المقدّس على جبل الزيتون، وتعرّض الكثير من الممتلكات المسيحيّة للنهب؛ منها دير القدّيس جاورجيوس الأورثوذكسيّ في جبل صهيون، وكنيسة «نوتردام دي فرانس»، ودير الراهبات، وقصر القاصد الرسوليّ البابويّ، ودير مار يوحنّا التابع للكنيسة الأورثوذكسيّة في نيسان ١٩٩٠، حيث قام عدد من المتطرّفين اليهود باحتلال المبنى. كما تعرّض الكثير من رجال الدين للاعتداء، كالاعتداء على رهبان دير الأقباط كما أشرنا سابقًا، والاعتداء بالضرب على المطران فاسيليوس، الرجل الثاني في البطريركيّة الأورثوذكسيّة.

وفي آب سنة ١٩٧٤، اعتقل المطران إيلاريون كبوشي بتهمة التعاون مع المنظّمات الفدائيّة الفلسطينيّة، وصدر الحكم في كانون الثاني ١٩٧٤ باعتقاله لمدّة ١٢ عامًا، وهو حكم يعبّر عن منطق الاحتلال وانتهاكه للقيم الأخلاقيّة والروحيّة الإنسانيّة.

القدس هي جزء ثمين من تراث الإنسانيّة، تعنون معالمها مخزونًا حضاريًّا متنوّعًا بفعل الإبداع الإنسانيّ فيها لقرون كثيرة، وهي بما تمتاز من قيم تخضع منذ الاحتلال لشتّى مشاريع الاستيطان والتخطيط، بحيث تتحوّل بعد مدّة وجيزة إلى مدينة عصريّة تشبه نيويورك ولوس أنجلوس، ممّا يسلبها روحانيّتها، ويتجاهل طبيعة المنطقة التاريخيّة والدينيّة. لقد أثارت عمليّات التغيير موجةً من الانتقادات العالميّة دانت العمل، وطالبت بوقف التنفيذ والحفاظ على طابع المدينة الدينيّ والحضاريّ. وقد لاحظ مراسل جريدة التايمز اللندنيّة الصادرة بتاريخ ١٥/٦/١٩٧٣ أنّ برنامج البناء الذي مارسته إسرائيل منذ ١٩٦٧ قد غيّر طبيعة المدينة نحو الأسوأ وبشكل خطير، وبرأيه لو استمرّ تنفيذ مشاريع الوحدات الضخمة «فإنّ هذه المدينة المقدّسة التي وقفت شامخةً عبر آلاف السنين من الحرب والصراع محكوم عليها بالفناء في أقلّ من عشر سنوات دون أن يُمتشق حسام أو تُطلق رصاصة واحدة».

انطلاقًا من كلّ ما تقدّم، وبرؤية واعية مدركة لخطورة الكيان الصهيونيّ على القدس وفلسطين والأمّة الإسلاميّة، أطلق الإمام الخميني العظيم صرخة إنقاذ القدس باستئصال الغدّة السرطانيّة، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[43]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا

---

(٤٣) سورة المائدة، الآية ٨٢.

مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾[٤٤].

(٤٤) سورة الأنفال، الآية ٦٠.